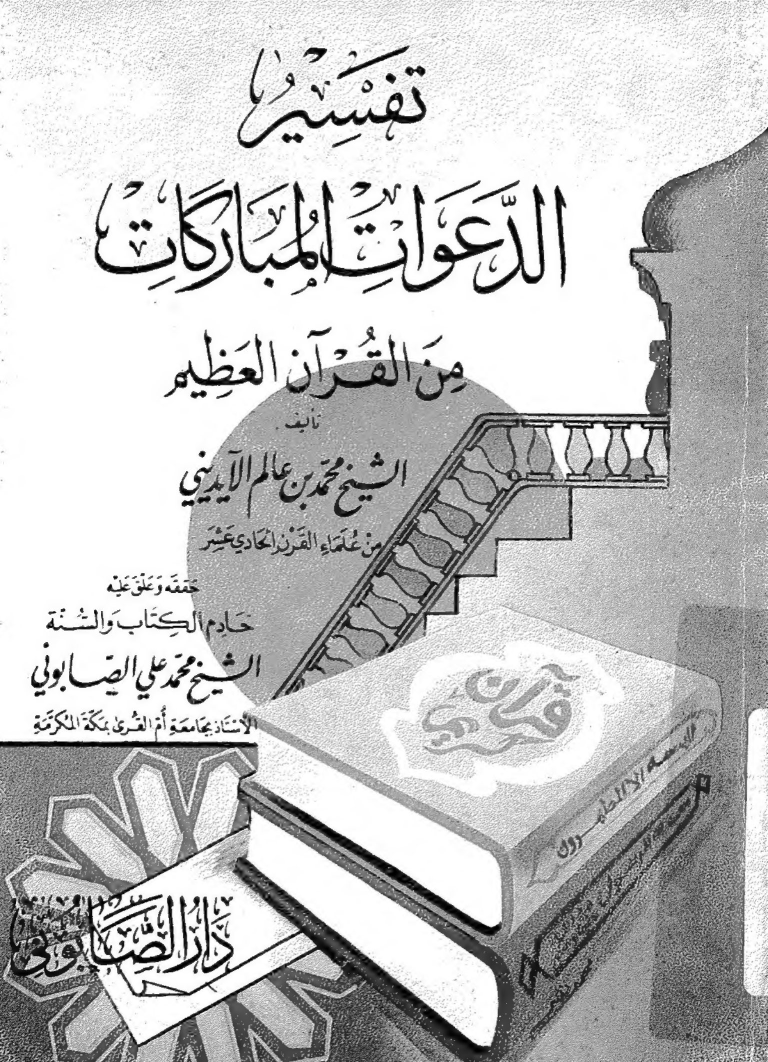

تفسير
الدعوات المباركات
من القرآن العظيم
تأليف
الشيخ محمد بن عالم الآيديني
من علماء القرن الحادي عشر
حققه وعلق عليه
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة
دار الصابوني

تفسير

الدعوات المباركات

من القرآن العظيم

دار الصابوني
للطباعة والنشر والتوزيع
٢٥ شارع يوسف عباس - مدينة نصر
القاهرة ت : ٦١٨٢٤٠

تفسير

الدعوات المباركات

من القرآن العظيم

تأليف

الشيخ محمد بن عالم الآيديني

من علماء القرن الحادي عشر

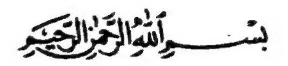
حققه وعلق عليه

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة





مُقدِّمَة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد أفضل الداعين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فقد عثرتُ على مخطوطةٍ نفيسة، في مكتبة الحرم المكي الشريف، بخط نسخٍ جميل، لمؤلفها الشيخ محمد بن حمزة الأيديني كوزل حصاري[1] من علماء القرن الحادي عشر الهجري.

وقد جمع فيها المؤلف رحمه الله تعالى، جميع الأدعية التي وردت في كتاب الله العزيز، على ألسنة الرسل الكرام، وما ورد على ألسنة عباد الله الصالحين، من المتقدمين والمتأخرين، من

(١) مؤلف هذا الكتاب من بن حمزة الأيديني من علماء الأتراك توفي رحمه الله سنة ١٠١٠ هـ ألف وعشرة هجرية ومن آثاره (التنزيل في التفسير، ورسالة في أحكام الشهيد، ورسالة في أحكام الجمعة، وفي الطلاق الثلاث)، وانظر ترجمته في معجم المؤلفين ٩/٢٧١.

هذه الأمة المحمدية، وممن سبقها من الأمم السالفة، وفسّرها بأسلوب سهل يسير، ونظراً لأهمية هذه الدعوات المباركات، فقد أحببتُ أن أطبعها في كتاب، ليستفيد منها الأخ المسلم بما يقرّبه من رضى الرحمن جلّ وعلا، وليقتدي بالسابقين من صلحاء الأمم، الذين أمرنا الله بالاقتداء بهم، سواء كانوا من الرسل الكرام أو أتباعهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾.

والله أسأل أن ينفع بهذه الدعوات عباده الصالحين، وأن يجزل الأجر والمثوبة لمؤلفها وناشرها إنه سميع مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم خادم الكتاب والسنة.

محمد علي الصابوني

قوله الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى [illegible]
الذين اصطفاهم بالنبوة [illegible]
وهم اصحابه صلى الله عليه وسلم [illegible]
عباس رضي الله عنهما [illegible] وقيل [illegible]
تعالى عليه وسلم [illegible] المؤمنين السابقين و
اللاحقين كما في تفسير ابن الخازن [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى اما بعد فيقول العبد
الملتجئ الى حرم ربه البارى الشيخ محمد ابن عالم محمد الايدي
الكردى البخاري عاملهما الله تعالى بلطفه الخفي انى فسرت
في سالف الزمان بعض سور القران وبعض ايات الفرقان
كفاتحة الكتاب من اولها الى آخرها وسورة البقرة من اولها
الى قوله تعالى واولئك هم المفلحون وقوله تعالى والهكم اله واحد
الى قوله تعالى لايات لقوم يعقلون وقوله تعالى الله لا اله الا
هو الحي القيوم الى قوله تعالى وهو العلي العظيم وقوله تعالى لله
ما في السموات وما في الارض الى آخر السورة الشريفة وقوله
تعالى شهد الله انه لا اله الا هو الى قوله تعالى لا اله الا هو
العزيز الحكيم وقوله تعالى قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء

صورة عن الصفحة الأولى لمخطوطة الحرم المكي الشريف.

الى قوله تعالى وترزق من تشاء بغير حساب ... تعالى ...
الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون الى
قوله تعالى حسبنا الله ونعم الوكيل وقوله تعالى ...
من انفسكم الى قوله تعالى وهو رب العرش العظيم وقوله تعالى يا ايها
الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد الى الخواتم
الشريفة وسورة الاخلاص والمعوذتين ولما مضى عليه
برهة من الزمان جمعت بعض الايات القرآنية المتضمنة
الفرقانية على ترتيب المصحف الشريف ثم فسرتها نادرا من كتب
التفاسير المعتبرة وسميت التفاسير المشتملة على مدين التصنيف
ازهار التنزيل ثم شرعت في تفسير الاسماء الحسنى ولما وقع
الفراغ من ذلك بعون الملك المولى وكان الاختتام كمسك الختام
حيث وقع ختامه بالدعوات القرآنية احببت ان افسر تلك الدعوات
منها بالتكون لذ ... تذييلا وتكميلا واستخرجت الصنف الثاني
من ازهار التنزيل ما يتعلق بتفاسير الدعوات الفرقانية
فقط دون الآيات المتضمنة لها ليسهل حفظها ولم ازد فيه

صورة الصفحة الثانية من المخطوطة .

قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت
الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه
إن الله لا يخلف الميعاد ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا
وقنا عذاب النار ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك
فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته
وما للظالمين من أنصار ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي
للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا
وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا
على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ربنا
آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا
وأنت خير الراحمين ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن
عذابها كان غراما إنها ساءت مستقرا ومقاما ربنا
هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين
إماما رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى
والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت

صورة عن الصفحة قبل الأخيرة من المخطوطة.

إليكَ وإني من المسلمين ربنا أخرجنا من هذهِ القريةِ الظالمِ
أهلُها واجعل لنا من لدنكَ وليًا واجعل لنا من لدنكَ
نصيرًا ربنا اغفر لنا ولإخوانِنا الذين سبقونا بالإيمانِ
ولا تجعل في قلوبِنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوفٌ
رحيمٌ ربنا أتمم لنا نورَنا واغفر لنا إنك على كلِّ
شيءٍ قديرٌ

سوّده الفقير إلى رحمة ربه القدير الحاج اسمعيل بن الحاج
محمد مرتضى أفندي ابراهيم الرودسي غفر الله ذنوبهم
وستر عيوبهم آمين

تمت

قابلت وصححت هذه الرسالة من أصلها الصحيح وأنا المذنب
الحاج اسمعيل

١٢٦٣

صورة عن الصفحة الأخيرة من المخطوطة.

مقـدمـة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعـد:

فيقول العبد الملتجىء إلى حرم ربه الباري الشيخ (محمد ابن عالـم محمد الآيديني) الكوزل حصاري عاملهما الله بلطفه الخفي والجلي: إني قد فسرت في سالف الزمان بعض سور القرآن، وبعض آيات الفرقان، كفاتحة الكتاب، وسورة الإخلاص، والمعوذتين، وبعض الآيات من سورة البقـرة ومن سورة آل عمران، ولمـا مضى على ذلك بـرهة من الزمان، جمعت بعض الآيات القرآنية، المتضمنة للدعوات الفرقانية على ترتيب المصحف الشريف، ثم فسرتها ناقلاً عن كتب التفسير المعتبرة، وسميت التفاسير المشتملة على هذين الصنفين «أزهار التنزيل» ثم شرعتُ في تفسير الأسماء الحسنى، ولما وقع الفراغ من ذلك بعون الملك المولى، وكان الاختتام كمسك الختام، حيث وقع ختامه بالدعوات القرآنية، أحببتُ أن أفسّر تلك الدعوات كلها، لتكون له تذييلاً وتكميلاً، فاستصفيتُ من الصنف الثاني من «أزهار التنزيل» ما يتعلق بتفاسير الدعـوات الفرقـانية فقط، دون

الآيات المتضمنة لها، ليسهل حفظها ولم أزد فيه شيئاً أجنبياً، إلا ما كان بالزيادة حرياً، كالتنبيهات في الدعوات، هل يجوز لنا الدعاءُ بكل واحد من الأدعية القرآنية بألفاظه الفرقانية أم لا؟.

ففي ذلك تفصيل:

فإن كان جميع ألفاظه مطابقاً لحال الداعي، وموافقاً لمطلوبه، يجوز له الدعاء به، كالدعاء المحكيِّ عن آدم عليه السلام وهو قوله:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ فإنه مطابق لحالنا وهو الاعتراف بذنوبنا، وموافقٌ لمطلوبنا وهو مغفرةُ الله تعالى ورحمتُه.

وإن كان بعضُها مطابقاً لحال الداعي، وبعضها مخالفاً للواقع بالنسبة إلى الداعي، أو منهياً عنه كالاستغفار للكافر[1]، فالداعي يترك المخالف والمنهيِّ عنه، ويدعو بالمطابق لحاله.

وإن كان بعضها مستحيلاً بالنسبة إلى الداعي، وممكناً بالتأويل، والصَّرف عن الظاهر إلى ما يليق بحال الداعي،

---

(١) كدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام لأبيه حين قال: ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ فقد نُهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ إلاَّ قولَ إبراهيمَ لأبيهِ لأستغفرنَّ لك ﴾.

فالداعي يترك المستحيل، ويدعو بالممكن المؤوَّل ويصرفه إلى ما يليق بحاله[1]، ونذكر كل واحد من هذه الوجوه في محله إن شاء الله تعالى.

وشرعتُ أولاً بتفسير الأدعية المحكية عن بعض الأنبياء عليهم السلام، على ترتيبهم في الزمان، ثم بتفسير الأدعية المحكية عن بعض الصالحين من الأمم الماضية، ثم بتفسير الأدعية المأمور بها نبينا ﷺ، ثم بتفسير الأدعية المحكية عن أمته ﷺ فجاءت بحمد الله كعين في جنة تسمى سلسبيلاً، ورتبتها على فصول أربعة:

---

(١) كدعاء أيوب عليه السلام وهو في بطن الحوت: ﴿ فنادى في الظلمات ان لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾.

الفَصْل الأوَّل

فيما حكي عن بعض الأنبياء والمرسلين المتقدمين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

قد حكي عن آدم وحواء عليهما السلام قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[1]، أي من الذين وقعوا في الخسران، وهو حرمان الثواب، وحصول العقاب في النيران.

واعلم أن آدم عليه السلام لما وقع في الزلة تاب الله عليه فقال:

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[2]، ثم أكرمه بالاصطفاء فقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ

---

(١) سورة الأعراف آية (٢٣).

(٢) سورة آل عمران آية (٣٣).

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[1]، ثم خصَّه بالاجتباء فقال:

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾[2].

ولكنَّ وقوعه فيها إما أن يكون في حال كونه ذاكراً.

أو في كون حاله ناسياً.

والذاهبون إلى الأول قالوا: إن آدم عليه السلام أخطأ في الاجتهاد، وبيان الاجتهاد أنه لما قيل لهما: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ظنَّ آدم عليه السلام أن الإشارة إلى عين الشجرة، لأن لفظة «هذا» قد يشار بها إلى الشخص، وقد يُشار بها إلى النوع، كما روي أنه عليه السلام أخذ حريراً وذهباً بيده وقال:

«هذان حلالٌ لإناث أمتي، حرامٌ على ذكورها»[3].

وأراد به نوعهما. فاجتهد آدم عليه السلام، فوقع اجتهاده على أن حكم النهي، مقصورٌ على عين تلك

---

(1) سورة البقرة آية (٢٧).

(2) سورة طه آية (١٢٢).

(3) أخرجه أبو داود والنسائي عن علي رضي الله عنه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ أخذ حريراً فجعله في يمينه، وذهباً فجعله في شماله ثم قال: «إن هذين حرام على ذكور أمتي» وأخرجه الترمذي بلفظ «حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأُحلَّ لإناثهم».

الشجرة، فتركها وتناول من شجرة أخرى من ذلك النوع، والمراد هي وأجناسها، كما يقال للمريض: لا تأكل من هذا الطعام فإنه يضرك، ويُراد به عينُه وأمثالُه.

فعوتب عليه السلام لترك التيقُّظ والتنبُّه لإصابة المراد، كما في شرح المقاصد.

وهذا يدلُّ على أنه يجوز إطلاق الزلة على أفعال الأنبياء عليهم السلام، فإنها اسم لفعلٍ يقع على خلاف الأمر، من غير قصد إلى الخلاف، ولا إصرار عليه، كزلَّة الماشي في الطين.

والحاصل أن المعصية إن كانت عمداً تسمى «ذنباً» وإن كانت سهواً أو خطأً تسمى «زلة».

وإطلاق اسم «الزلة» على أفعالهم جائز عند عامة العلماء، لكنْ الأولى ألا يُطلق اسم الزلة على أفعالهم، تنزيهاً لهم عن سمات النقص[1] في حالاتهم، وإنما يُقال: فعلوا الفاضل، وتركوا الأفضل فعوتبوا عليه، كذا ذكره الشيخ عمر بن محمد بن أحمد النسفي في تفسيره الموسوم بالتيسير. والإمام الهُمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي في تفسيره المسمى بـ(مدارك التنزيل).

---

(١) هذا هو الراجح لأنهم لا يتعمدون المعصية والمخالفة، ونحن مأمورون بإتباعهم، فلو لم يعصمهم الله عن المعاصي لما كان الواجب إتباعهم.

والذاهبون إلى الثاني احتجوا بظاهر قوله تعالى في سورة طه:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾[1].

أي أمرناه ووصيناه من قبل هذا الزمان، ألا يأكل من الشجرة، وتوعَّدناه بكونه من الظالمين إن أكل منها ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ أي عزماً على المعصية، لأنه نسي ولم يتعمد، انتهى تفسيره.

وفيه تنبيهٌ نبيهٌ إلى أن أساس بني آدم على العصيان، وعرقُهم راسخٌ في النسيان، ولهذا قال بعض أهل البيان:

«أَوَّلُ النَّاسِ أَوَّلُ النَّاسي» كما في تفسير الملا علي القاري.

ثم اعلم أن هذه القصة يحتمل أن تكون قبل نبوته، ويحتمل أن تكون بعدها. والظاهر أنها كانت قبلها[2]، تنزيهاً لمحل النبوة كما نصَّ عليه الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير.

«فصــل»

تقرير الكلام في هذا المقام، أن الأنبياء الكرام عليهم

---

(١) سورة طه آية (١٢٢).

الصلاة والسلام، معصومون قبل البعثة من الكفر والشرك باتفاق العلماء والأعلام!.

قالوا: إنه لم يبعث نبيٌّ قطُّ أشرك بالله طرفة عين.

وأما عصمتهم عما سواهما من سائر المعاصي فمختلف[1] فيها، فمنعها بعضهم، وجوَّزها آخرون.

وذهبتْ طائفة أخرى إلى التوقف وقالوا: العقل لا يُحيل وقوعها منهم قبل النبوة.. ولكنْ لم يأت في الشرع قاطعٌ بأحد الأمرين، والله تعالى أعلم.

«عصمتهم بعد النبوة»

وأما الأنبياء عليهم السلام بعد الوحي، والاتصاف بالنبوة، فهم معصومون عن «الكبائر» و«الصغائر» مطلقاً.

وقيل: معصومون عن الكبائر مطلقاً، وعن الصغائر عمداً لا سهواً.. لكنْ لا يُصِرُّون ولا يُقَرُّون، بل يُنَبَّهون فينتهون، قبل أن تتقرّر شريعتهم.

وهم منزهون من كل عيب يؤدي إلى إزالة الحشمة،

---

(١) الأرجح أن الأنبياء معصومون من الذنوب الكبائر قبل النبوة وبعدها، وأما الصغائر فيمكن أن تحصل منهم والله أعلم.

وإسقاط المروءة، وعن كل ما يوجب الريب والشكّ في نبوتهم.

والمخالفون: احتجوا بما نُقل من أقاصيص الأنبياء عليهم السلام، من نسبة المعصية والذنب إليهم، ومن توبتهم واستغفارهم وأمثال ذلك.

والجواب عنه أن ما نُقل عنهم آحاداً فمردودٌ، لأن نسبة الخطأ إلى الرواة، أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء عليهم السلام.

وأما ما نقل عنهم متواتراً، أو منصوصاً في الكتاب، فمحمولٌ أنه كان قبل البعثة، أو على السهو والنسيان، أو على ترك الأولى والأفضل[1]، كذا ذكره العلامة التفتازاني في شرح المقاصد.

واعلم أنا قد ذكرنا ما يتعلق بتفاسير الآيات، المتضمنة للدعوات القرآنية، في كتابنا الموسوم بـ «أزهار التنزيل».

وذكرنا في هذه المجموعة التي تسمى «سلسبيلاً» ما يتعلق بتفاسير الأدعية الفرقانية فقط، ليسهل حفظها، كما أشرنا في الخطبة.

---

(١) كما فعل النبي ﷺ في أسارى بدر حين أخذ الفداء منهم، فنزلت الآيات تعاتبه.

ولما كان «آدم» عليه السلام أبا البشر، وأول الأنبياء، ذكرنا أولاً ما يتعلق بتفسير الدعاء المحكيِّ عنه، واستجابةِ دعائه، وقبولِ توبته، واصطفاءِ اللّه إيّاه واجتبائِه، وما يتعلّقُ بعصمتِه وعصمة سائر الأنبياء والمرسلين، فإن اعتقاد عصمتهم ـ على ما قرّرناه ـ من ضروريات الدّين.

«ما جاء في موت آدم عليه السلام»

عن عروة رضي الله عنه: لما مات آدم عليه السلام، وُضع بباب الكعبة، فصلّى عليه جبريل عليه السلام، ودفنته الملائكة بمسجد الخيف، وقبرُ حواء بجدّة[1].. ذكره السيوطي في كتابه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور».

وقال آخرون: لما تُوفّي آدمُ عليه السلام، غَسَّلتْه الملائكةُ، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، والله تعالى أعلم.

قيل: لم يمت «آدم» عليه السلام حتى بلغ ولَدُه، وولَدُ ولَدِه، أربعينَ ألفاً.

«تنبيـــه»

يجوزُ الدعاء بهذه العبارة البليغة، المحكيَّة عن «آدم»

(١) ليس هنا دليل قطعي، على مكان آدم عليه السلام، ولا يعرف قبرُ أحدٍ من الأنبياء على وجه القطع، إلا قبر نبينا عليه السلام، وقبر موسى بن عمران وهو قريب من الصخرة، وما عداهما فعلى وجه الظن.

و «حواء» عليهما السلام، لكنْ الداعي يصرفُه بقلبهِ إلى ما يليقُ بحاله، بأن يقول:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ أي في مدة هذا العمر الطويل، بارتكاب أنـواعٍ من المعاصي وأصنـافٍ من المنـاهي.. والحال أنَّا تُبنا وأنبنا إليك، بالاعتراف من كل ذنوبنا، فاغفر لنـا وارحمنـا ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَـا وتـرحمنـا لنكـونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ أي من الذين وقعوا في الخسران المبين.

فينبغي للداعي أن يداوم على هذا الدعاء، ويواظب عليه في الصبح والمساء، لأنه مطابقٌ لحاله، وموافق لمطلوبه، لعلَّ الله يتوب عليه برحمته كما تاب على آدم برحمته، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

«دعوات نوح عليه السلام»

وقد حُكي عن نوح عليه السلام قوله تعالى في سورة هود:

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾.

دعا بها لمَّا قال له سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.. ﴾، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾.

وهـذا أبلغ من أن يقـول: ربِّ إني أتـوب إليـك أن أسألك . لما فيه من الدلالة على كون ذلك، أمراً هائلاً محذوراً، لا محيص منه إلا بالعوذ[1] بالله تعالى. . وأن قدرة العبد قاصرةٌ عن النَّجاة من المكاره إلاَّ بذلك.

وقوله: ﴿ مَا لَيْس لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ الموصول إمَّا عبارة عن السؤال الذي هو مفعول مطلق، أو عن المسؤول الذي هو مفعول أسألك.

فعلى الأول يكون المعنى: ربِّ إني أعوذ بك أن أطلب منك بعد ذلك، طلباً لا أعلم أنه صواب أو غير صواب.

وعلى الثاني يكون المعنى: ربِّ إني أعوذ أن أطلب منك مطلوباً، لا أعلمُ أن حصوله صوابٌ، أو غير صواب، كذا في تفسير أبي السعود.

يعني: اغفرْ لي واحفظْني من سؤال ذلك، حتى لا أعود إليه وإلى أمثاله.

وقولُه: ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي ﴾ أي وإن لم تغفر لي ما فرط مني من السؤال، ولم ترحمني بالعصمة عن العود إليه وإلى أمثاله.

﴿ أَكُنْ مِنَ الخَـاسِـرِينَ ﴾ أي من الـذين وقعـوا في الخسران المبين.

---

(١) أي الاستعاذة والالتجاء إلى الله عز وجل.

وهذه توبةٌ من نوحٍ عليه السلام، وتسليمٌ لأمرِ اللّٰه عزَّ وجلَّ، كما في البحر المحيط.

قيل: هذه عادةُ الصّالحين، فإنّهم إذا وُعِظوا اتّعظوا، وإذا نُبِّهوا للخطأ استغفروا وتعوّذوا، كما حُكي عن بعض التائبين المستغفرين من الأمم الماضية قولُهم:

﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[1].

«تنبيه»

واعلم أن الإنسان إذا سأل شيئاً، ولم يعلم أن سؤاله صوابٌ أو غير صواب، أو أحبَّ شيئاً وتمنّى حصوله، ولم يعلم أنه صوابٌ أو غير صواب.. فطلَبه ثم حصل له مطلوبُه ومتمنّاه، ثم ظهر له أنه ليس بصواب، ينبغي له أن يتعوّذَ ويستغفر عن ذلك، بهذه العبارة البليغة، المحكيّة عن «نوح» عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي، أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾.

وكذلك كلُّ إنسان يحبُّ ويتمنّى حصول شيء، لا

(١) هذا من كلام المؤمنين الصالحين من قوم موسى، بعد أن تابوا من عبادة العجل، واعتذروا عما فعله السفهاء منهم، قالوا: ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا.. ﴾ الآية.

يستخير ولا يستشير[1]، ويظنّ أنه خيرٌ له، فيَسْأَلُ ويُعْطى مسؤولَه ومتمنّاه، ثم يظهر خلافُه، ينبغي له أن يتوب ويستغفر، ويدعو اللَّهَ تعالى أن يحفظه من سؤال ذلك، حتى لا يعود إليه وإلى أمثاله.

٢ ـ وقد خوطب نوح عليه السلام، وأُمر بالدعاء المصدَّر بهذا الاسم الشريف، وذلك قوله تعالى في سورة «المؤمنون»:

﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾.

﴿ مُنْزَلاً ﴾ بضم الميم وفتح الزاي أي إنزالاً.

أو موضع إنزال يستتبع خيراً كثيراً.

وقُرِىء ﴿ مَنْزِلاً ﴾ بفتح الميم وكسر الزاي، أي موضع نزول.

﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ هذا من الثناء المطابق لدعائه عليه السلام[2].

---

(١) أي لم يأخذ بالاستخارة الشرعية التي أرشدنا إليها رسولنا الكريم، ولم يستشر إخوانه.

(٢) هذا الدعاء إنما كان بعد خروجه من السفينة، وبعد غرق أهل الأرض، ونجاة المؤمنين الذين كانوا معه في السفينة، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فلما نزل من السفينة واستقر على وجه الأرض دعا بهذا الدعاء.

«تنبيـــه»

واعلم أن الإنسان، إذا أراد أن ينزل منزلاً، يجوز له أن يدعوَ اللَّهَ تعالى بهذه العبارة البليغة، المحكيَّةِ عن نوح عليه السلام، ويصرفه إلى ما يليق بحاله ومنزله.

* * *

٣ ـ وحُكي عن نوح عليه السلام أيضاً في سورة «نوح» قوله:

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ولِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً، وَلِلْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمينَ إلاَّ تَبَاراً ﴾.

وقوله: ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ وكانا مؤمنين.

وقيل: لم يكن بين «آدم» و«نوح» عليهما السلام من آبائه كافر، وكان بينهما عشرة آباء[١].

وقوله: ﴿ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ ﴾ أي منزلي وسفينتي، ﴿ مُؤْمِناً ﴾ بهذا القيد.. خرج ابنه «كنعان» وامرأته الكافرة.

ولكنْ لم يجزم عليه السلام بخروجه إلاّ بعد ما قيل له: ﴿ إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ إلى يوم القيامة

(١) روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام» أخرجه البخاري، وانظر البداية النهاية ١٠١/١ ففيه ما يتعلق بقصة نوح عليه السلام مفيد

«تنبيـــه»

ينبغي للإنسان أن يدعو الله تعالى بهذه العبارة البليغة، المحكيَّةِ عن نوح عليه السلام[1]، بلا تأويل، ولا صرف عن ظاهره، إن كان والداه مؤمنين، وامرأته مسلمة، وإلّا يريد بالوالدين «آدم وحواء» عليهما السلام، أو «نوحاً» عليه السلام وامرأته المسلمة.

* * *

«دعوات إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام»

وقد حُكي عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قولُه تعالى في سورة «البقرة»:

١ - ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

قوله: ﴿ رَبَّنَا ﴾ فيه إفرادُ اللّه تعالى بالربوبية، وإقرارٌ له بالعبوديَّة، والمرادُ بالتقبُّل: الإثابةُ، عبَّر بأحد المتلازمين عن الآخر، لأن التقبُّل هو أن يتقبَّل الرجلُ من الرجل ما يُهدي إليه، فشبَّه فعلَ العبد بالهديَّة، ورضاء الله سبحانه وإثابته بالتقبل، كذا في البحر المحيط.

---

(١) إنما خصَّ نوح المؤمنين والمؤمنات بالدعاء، لأن غير المؤمن لا يستحق التكريم، بل يستحق الإهانة والذل، ودعاء الأنبياء مستجاب، ولذلك اقتصر نوح في دعائه للمؤمنين لأنهم أهل للفضل والإنعام.

قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ ﴾ أي لجميع المسموعات التي من جملتها دعاؤنا، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ أي بجميع المعلومات التي من زمرتها، أحوالنا، ونياتنا في جميع أعمالنا.

وتأكيدُ الجملة لقوّة يقينهما بمضمونها، وقصرُ صفتَيّ «السمع» و«العلم» عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى، وانقطاعِ رجائهما عمَّا سواه بالكليّة، كما في تفسير أبي السعود.

قوله: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ أي بالرحمة والمغفرة، وقبول التوبة.

وقيل: أي وفِّقْنا للتوبة واقبلْها منّا، ولعلَّهما قالاها هضماً لأنفسهما، أو إرشاداً لذريتهما.

قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ تعليلٌ للدعاء، ومزيدُ استدعاءٍ للإجابة، ولذا قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له دعاؤه، فلْيدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، فإذا كان الدعاء للرحمة والمغفرة، وقبول التوبة والطاعة، فلْيدعُ اللّهَ تعالى باسمه السّميع العليم، والتوّاب الرحيم، وما أشبه ذلك.

وإن كان الدعاء للانتقام، فلْيدعُ اللّهَ تعالى باسمه العزيز، والمنتقم، والجبار، والقهّار، وما ناسب ذلك.

وفي الجمع بين الوصفين: وعدٌ للتائب بالإحسان مع

المغفرة، كما صرّحوا به في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

واعلم أن أصلِ التوبة: الرجوعُ[1]، كالأَوْبة، فقولهم: تاب، يتوب، توباً، وتوبةً، فهو تائب، وتوّاب، كقولهم: آبَ، يئوب، أوباً، وإياباً، وأوبةً، فهو آئب، وأوّاب.

والتوبةُ: لفظٌ يوصف به الربُّ والعبد، فإذا وصف به الرب تعالى، أريد به الرجوع من العقوبة إلى المغفرة.. وإذا وُصف به العبد، كان رجوعاً عن المعصية إلى الطاعة، كذا في تفسير القاضي.

وبالجملة فالتوبةُ في حقّ العبد، عبارةٌ عن عوده إلى الخدمة والعبودية، وفي حقِّ الربِّ تعالى، عبارةٌ عن عوده إلى الإحسان اللائق بالربوبية، يُقال: فلانٌ تاب إلى ربه، فالمعنى رَجَع إلى ربِّه، لأنَّ كلَّ عاصٍ فهو في معنى الهارب من ربِّه، فإذا تابَ فقد رجع عن هربه إلى ربه، فيقال: تاب العبدُ إلى ربه، والربُّ تابَ على عبده.

وقد يفارق الرجلُ خدمةَ أمير، فيقطع الأميرُ معروفه عنه، ثم يرجع إلى خدمته، فيقال: فلانٌ عاد إلى الأمير، والأميرُ عاد إليه، أي بمعروفه وإحسانه.

والحاصلُ أن لفظ ﴿ التوّاب ﴾ يطلق على الله عزَّ وجلَّ

---

(١) التوبة: الرجوع عما فرط منه مع الندم، فمن لم يرجع عن غيّه، ويندم على ذنبه فهو كذاب ولذا أمرنا الله بالتوبة النصوح.

كما في هذه الآية، ويُطلق على العبد، كما في الحديث المرويّ عن علي كرّم الله وجهه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يحبُّ العبد المؤمنَ المفتَّن التَّـوَّاب»[1].

قوله: «المفـتَّـن» بتشديد التاء المفتوحة، أي المبتلي كثيراً بالسيئات، أو بالغفلات، أو بالحَجْب عن الحضرات. . وأما التواب أي كثير الرجوع إلى الله تعالى، فتارة بالتوبة من المعصية، وتارةً بالأوبة من الغفلة إلى الذكر. . وأخرى من الغيبة إلى الحضور والمشاهدة.

قال الطيبي: المفتَّنُ: الممتحنُ، يمتحنه الله بالذنب لئلا يُبتلَى بالعجب والغرور، اللذين هما من أعظم الذنوب والعيوب، ثم يتوبُ، ثم يعود إليه، ثم يتوب منه، ثم يعود إليه هكذا. . وهو صريح في صحة التوبة مع وقوع العودة، كما في شرح مشكاة المصابيح، لملاّ علي القاري، عليه رحمة ربه الباري.

وقد ورد: «ما أَصَرَّ من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرَّة».

«تنبيـــه»

واعلم أن الإنسان إذا عمل خيراً، ينبغي له أن يدعو الله تعالى بالقبول ـ كما في تفسير أبي الليث ـ لا سيّما بهذه

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، وفي سنده ضعف، وانظر المسند ٦٠٦/٢ تحقيق أحمد شاكر.

العبارات الفصيحة، والكلمات اللطيفة، المحكيَّة عن الخليل عليه السلام.

ثانياً: وحُكي عن إبراهيم عليه السلام قوله تعالى في سورة «إبراهيم»:

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾[1].

قوله: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أي صيِّرني مداوماً عليها، وقائماً بحقوقها.

قوله: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أي بعض ذريتي، فمنْ للتبعيض، عطف على الضمير المنصوب في «اجعلني» أي واجعل منهم من يقيمون الصلاة ويحافظون عليها، والتبعيض لعلمه عليه السلام من وجود الكفَّار والفُجَّار، في ذرية الأنبياء الأخيار، إمَّا بإعلام الله تعالى، أو باستقراء عادته تعالى في الأمم الماضية

قوله: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَائِي ﴾ أي استجبْ دعائي، أو تقبَّلْ عبادتي، بالياء في الوصل والوقف، أثبتها في الحالين يعقوب، والبزِّي، وأثبتها وصلاً أبو جعفر، وأبو عمرو، وحمزةُ، وورشٌ، واختلفت الرواية عن «قُنْبُل» وصلاً ووقفاً،

---

(١) سورة إبراهيم آية رقم (٤٠ ـ ٤١).

ذكره الشيخ محمد الجزري في كتابه الموسوم بـ «النشر في القراءات العشر».

قوله: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾.

وقد بيّن الله تعالى عُذْر خليله في استغفاره لأبيه في سورة «التوبة» بقوله:

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ . . ﴾[1] الآية.

قوله: ﴿ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ العلل، أي لم يكن استغفار إبراهيم لأبيه «آزر» ناشئاً عن شيء من الأشياء، إلّا عن موعدةٍ وَعَدَها إياه بقوله في سورة «مريم»: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾، وبقوله في سورة «الممتحنة»: ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾.

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ أي بأن أوحى الله له أنه مصرٌّ على الكفر.

﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ أي من الاستغفار له، وتجانب كل التجانب، كذا في تفسير أبي السعود.

---

(١) كان هذا من إبراهيم عليه السلام، قبل أن يتبيّن له أن أباه مصرٌّ على الشرك، فلما ظهر له إصراره على الشرك تبرأ من أبيه ولم يعد يستغفر كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عدوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حليم ﴾

قولُه: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كافةً من ذريته وغيرهم.

قوله: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾ أي يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

«تنبيـــه»

واعلم أن الخليل عليه السلام قال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ وهذا يدل على أن ترك المنهيّات، لا يحصل إلاّ من الله تعالى.

وقال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ وهذا يدل على أن فعل المأمورات، لا يحصل إلاّ من الله تعالى، كما صرح به الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير.

فعلى هـذا ينبغي للإنســان أن يسأل الله العصمـةَ من المعصية، والتوفيق على الطاعة، لنفسه ولذريته الموجودة والمرجوّة، ويدعو لنفسه بالمغفرة وللمؤمنين كافة، ولوالديه خاصة إن كانا مؤمنين، ويتضرّع إلى ربه، ويبتهل لتقبل دعائه، فإن القبول والردَّ إلى اللّهِ تعالى، وأنه لا يجب على الله شيء.. ويجوز أن يُراد بالوالدين إمّا «آدم وحواء» عليهما السلام، أو «نوح» عليه السلام وامرأته المسلمة.

ثالثاً: وحكي أيضاً عن إبراهيم عليه السلام قوله تعالى في سورة «الشعراء»:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1].

لقد أجاب الله تعالى دعاءه حيث قال: ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

قوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً ﴾ لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة، لأنها كانت حاصلة له عليه السلام، بل المراد من الحكم ما هو كمال القوّة النظرية، وذلك بإدراك الحقّ.

والمرادُ من قوله: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ كمالُ القوة العمليّة، وذلك بأن يكون عاملاً بالخير، فإن كمال الإنسان أن يعرف الحقّ لذاته، والخيرَ لأجل العمل به، كذا في التفسير الكبير.

والمعنى: هب لي كمالاً في العلم والعمل، أستعدُّ به خلافة الحق، ورياسة الخلق.

قوله: ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ أي واجعل لي ثناءً حسناً في الذين سيأتون بعدي إلى يوم القيامة، كما في تفسير الجلالين.. أو اجعل لي صيتاً وثناءً

---

(١) سورة الشعراء آية رقم (٨٣ ـ ٨٩).

حسناً في الدنيا، يبقى أثره في العُقبى، ولذا ما من أمة إلا وهم محبون له، مثنون عليه، متنسبون إليه.

قال القشيري: أراد الخليل عليه السلام، الدعاءَ والثناء الحسن، إلى قيام الساعة، فإن زيادة الثواب مطلوب لكل أحد، كما في تفسير القرطبي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أعطاه اللَّهُ ذلك بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ أي أبقينا عليه ثناءً حسناً، وذكراً جميلاً، فيمن يأتي بعده إلى يوم القيامة.

قوله: ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ لمّا طلب الخليل عليه السلام سعادة الدنيا، طلب بعدها سعادة الآخرة، وهي جنة النعيم في الدار المقيم.

قوله: ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي عن طريق الحق واليقين.

قولُه: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا تفضحني يومُ يبعث الخلائق أجمعون[1]، والضمير في ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ للعباد، لأنهم معلومون.

---

(١) روى الإمام البخاري بسنده أن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرةٌ وغَبَرة ـ أي ظلمةٌ وغبار ـ فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني!! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزني يوم يُبعثون، فأيُّ خزيٍ أخزى =

قوله: ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُوْنَ ﴾ والمراد بـ ﴿ البَنُوْنَ ﴾ الأولاد والأعوان.

قوله: ﴿ إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي من العقائد الفاسدة، والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها الفانية.

اعلم أن الله أكرمه بهذا الوصف حيث قال: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1].

قوله: ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُوْنَ ﴾.

قوله: ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ ﴾ بدل من قوله: ﴿ يوم يُبْعَثون ﴾.

قوله: ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ ﴾ إمَّا بدل من فاعل ينفع، فيكون مرفوعاً، أو من مفعوله المحذوف، أو مستثنى من المفعول المحذوف.

والتقدير على الأول: ﴿ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ﴾ إلا مال أو أبناء من أتى اللَّهَ بقلب سليم.

والتقدير على الأخيرين: يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

وأجاز الزمخشري أن يكون ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ ﴾ مفعول

= من أبي الأبعد!؟ فيقول الله تعالى: إني حرّمتُ الجنة على الكافرين، ثم يقول: يا إبراهيم، انظر تحت رجلك، فإذا هو بذيخٍ ـ ذكرٍ من الضباع ـ متلطخ، فيؤخذ من قوائمه فيلقى في النار. أخرجه البخاري.

(1) سورة الصافات آية رقم (٨٣ ـ ٨٤).

«لا ينفع، أي لا ينفع مال ولا بنون إلا هذا الشخص، فإنه ينفعه ماله المصروف في وجوه البرّ، وبنوه الصلحاء، وأعوانه الأتقياء».

ويجوز على هذا ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي من فتنة المال والبنين.

«تنبيـه»

قوله عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ من جوامع الدعاء، لا مطمع وراءه، فينبغي للعاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على عقله ـ أن يدعو الله تعالى بهذه الكلمات اللطيفة، المحكيّة عن الخليل عليه السلام، ويواظب عليها على الدوام.

وقوله عليه السلام: ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾.

وقد بيّن اللّهُ عذر خليله في استغفاره لأبيه، بأنه صدر عن موعدة وعدها إياه، فقال في سورة «التوبة»: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾، أي بقوله في سورة «مريم»: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾، وبقوله في سورة «الممتحنة»: ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾.

وقيل: الواعد أبوه «آزر» وعده أن يؤمن، فكان عليه السلام يستغفر له بناءً على ذلك الوعد، والأول أصحُّ، ويوافقه قراءة الحسن «وعدها أباه» بالباء الموحّدة.

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ أي بأن أُوحي إليه أنه مصرٌّ على الكفر.

﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ أي من الاستغفار له[1]، كذا في تفسر النيسابوري.

فلا يجوز لنا الاستغفار للكافر، ما دام مصرّاً على كفره، ولا الاستغفار له بعد مماته، ولكنْ يجوز الدعاء له بالهداية والتوفيق للإيمان، في حال حياته.

وأما قوله عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ فنعم الدعاء هو بالنسبة إلينا، كما حُكِيَ عن بعضِ الصالحين من هذه الأمة ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[2].

وأما بالنسبة إلى الخليل عليه السلام، فلا يستقيم إلا على

---

(1) الأظهر أن المعنى تبرأ إبراهيم من أبيه، وتبرأه منه يستلزم الكفَّ عن الاستغفار له.

(2) هذا من دعاء المؤمنين من أمة محمد عليه السلام، والآية في أواخر سورة «آل عمران» وأولها: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

مذهب أهل السنة والجماعة، حيث قالوا: لا يجب على الله شيء، وأنه يحسن منه كل شيء، ولا اعتراض لأحد عليه في فعله، أو على القول بأن «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

رابعاً: وحكي عن إبراهيم عليه السلام أيضاً قوله تعالى في سورة «الصافات»:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾، أي هبْ لي ولداً من الصالحين، يؤنسني في الغُربة، ويعينني على الدعوة والطاعة.

«تنبيـــه»

ينبغي للإنسان أن يطلب ولداً من الصالحين، لأنه من سنن الأنبياء والمرسلين.

واعلم: أن الصلاح أفضل الصفات، بدليل أن إبراهيم الخليل عليه السلام، طلب الصلاح لنفسه فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ وطلبه لولده فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وأثنى به عليه ربُّه فقال: ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

وطلَبَه سليمانُ عليه السلام فقال: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِ الصَّالِحِينَ ﴾.

وطلبه يوسف عليه السلام فقال: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾.

وذلك يدل على أنّ «الصلاحَ» أشرفُ مقامات السالكين.

«اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصّالحين».

خامساً: وحكي أيضاً عن إبراهيم عليه السلام قوله في سورة «الممتحنة»:

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا، وَإِلَيْكَ المَصِيرُ. رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوْا وَاغْفِرْ لَنَا، اَنَّكَ اَنَّتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾.

قوله: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي في جميع أمورنا[1]، ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ أي وإليك رجعنا بالاعتراف من كل ذنوبنا، ﴿ وَإِلَيْكَ المَصِيرُ ﴾ أي إليك مصيرُ الكلّ، ومرجعُه بالموت والبعث، لا إلى غيرك.

والمراد: إلى حكمه وقضائه رجوعُ الكلّ، لأنه تعالى يبعث من في القبور، ويجمعهم في المحشر.. وذلك الرجوع إلى الله تعالى، لأنه رجوع إلى حيث لا يتولى الحكم فيه إلاّ اللّهُ عزّ وجلّ، كقولهم: رجع الحكم إلى الأمير، أي إلى حيثُ لا يحكم غيره.

---

(١) معنى التوكل: الاعتماد على الله، واللجوء إليه، وتفويض الأمور إليه سبحانه وتعالى، فمن فوّض أمره إلى الله كفاه الله كما قال سبحانه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾.

وفيه إقرارٌ بالبعث والجزاء، كذا ذكره الإمام الفخر الرازي، في كتابه الموسوم بـ «أسرار التنزيل».

وقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا.. ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي لا تُسلِّط علينا أعداءنا، فيظنُّوا أنهم على الحقِّ، فيزدادوا طغياناً وكفراً[1].

وقال مجاهد: أي لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحقّ لما أصابهم ذلك.

قوله: ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا.. ﴾ تكرير النداء للمبالغة في التضرع.

قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ.. ﴾ أي الغالب الذي لا يذِلُّ من التجأ إليك، ولا يَخيبُ رجاءُ من توكَّل عليه.

قوله: ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ أي الذي لا يفعل إلاّ ما فيه حكمة بالغة.

والحكمةُ: هي العلم بالأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي، ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يُجير المتوكِّل، ويُجيب الداعي، كما في تفسير القاضي.

---

(١) الآية لها وجهان من التأويل كما ذكر الشيخ رحمه الله، الأول مرويٌّ عن ابن عباس، والثاني قول مجاهد، وقول ابن عباس هو الأرجح، لأنه دعاء لأنفسهم بعدم تمكين الكفار من رقابهم، حتى يفتنوهم عن دينهم.

«تنبيـــه»

ينبغي للإنسان أن يدعو الله تعالى بهذه الألفاظ الفصيحة، والكلمات اللطيفة، المحكيّة عن الخليل عليه السلام[1]، سيّما عند استيلاء الكفار اللئام، على المسلمين الكرام، كما هو في زماننا.

«الدعوات التي دعا بها يوسف عليه السلام»

وقد حكي عن يوسف عليه السلام قوله تعالى في سورة «يوسف»:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾.

قوله: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ ﴾ أي أعطيتني بعض الملك وهو ملك مصر.

قوله: ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أي بعض تفسير الكتب الإلّهية، وتعبير الرؤيا المنامية.

---

(١) بعد أن نال يوسف الصدّيق عزّ الدنيا بالملك والإمارة، تشوّق إلى نعيم الآخرة، فابتهل إلى ربه أن يقبضه على الإيمان، ويدخله الجنان مع النبيّين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين، فاستجاب الله دعاءه، فتوفي وهو في عزّ الملك والسلطان.

قوله: ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي موجدهما ومبدعهما من غير مثال سابق.

قوله: ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أي مالك أموري فيهما.

قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمَاً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أي بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة، فإنما تَتمُّ النعمةُ بذلك.

وقوله عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمَاً ﴾ هل هو طلب الوفاة من الله تعالى أم لا؟.

فقال ابن عباس في رواية عطاء: المراد إذا توفيتني فتوفني على الإسلام، فهذا طلبٌ لأن يجعل الله تعالى وفاته على الإسلام، وليس فيه ما يدلُّ على أنه عليه السلام طلبَ الوفاة.

وقيل: تمنَّى ملك الآخرة فتمنَّى الموتَ.. ما تمنَّاه نبيٌّ قبلَه ولا بعده، فتوفاه اللّهُ طيباً طاهراً، وكثيرٌ من المفسرين على هذا القول.

روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رأيتُ لَيْلَةَ أُسْري بي إلى السَّماءِ، يوسفَ عليه السلام كالقمر ليلةَ البدر»[١].

---

(١) الحديث في الصحيحين في قصة الإسراء والمعراج.

وقال عليه السلام في حديث الإسراء:

«فمررتُ بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أُعْطِي شَطْرَ الحُسْنِ»[1].

قال العلماء: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام.. لأن الله تعالى خلقه بيده، كما أخبر به سبحانه تعالى في سورة «صٓ»:

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ ﴾؟.

﴿ بيديَّ ﴾ بالتشديد أي خلقته من غير توسّط «أب وأمّ».

وقيل: خلقته بغير واسطة، وقيل: خلقتُه بقدرتي فكان في غاية الحُسْن البشريّ، ولهذا يدخل أهل الجنة على صورته، وكان يوسف عليه السلام على النصف، ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم يكن بعد حواء أشبه بها من «سارة» امرأة إبراهيم عليه السلام، كذا في البحر المحيط.

وفي الخبر: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من الكريمُ بنُ الكريم، بنِ الكريم، بنِ الكريم؟ قالوا: لا؟ قال: ذلك يوسف بن يعقوب، بن إسحاق بن إبراهيم»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه البخاري بلفظ: «الكريم بن الكريم بن الكريم» يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

وفي الحديث القدسي: «من شغلهُ ذكري عن مسألتي أعطيتُهُ أفضلَ ما أُعطي السائلين»[1].

فلهذا المعنى من أراد الدعاء، لا بدّ أن يُقدّم عليه ذكر الثناء، على الله تعالى، فههنا يوسف عليه السلام، لما أراد أن يذكر الدعاء، قدّم عليه الثناء[2] وهو قوله:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ..﴾ الآية.

ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قولُه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ كما في التفسير الكبير.

«تنبيــه»

لا يجوز لنا الثناء بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ..﴾ لأنه خلاف الواقع بالنسبة إلينا، وأما بالنسبةَ إلى من أُعطيَ بعضَ المُلْك، وبعضَ العلوم من تفسير الكتب الإلٓهية، أو تعبير الرؤيا المناميَّة، فيجوز له الثناء، بهذه العبارة المحكيَّة عن يوسف عليه السلام.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، والدارمي في مسنده.

(٢) هذا من توجيهات القرآن للمسلمين، أن يُقدِّموا بين يدي الدعاء الشكر والثناء، على الله جلَّ وعلا، كما كان يفعل ﷺ في كل أمر، وبين يدي كل حاجة يطلبها من ربه.

وأما الثناء بقوله: ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.. ﴾، والدعاء بعد ذلك بقوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ فنعم الثناءُ، ونعمَ الدُّعاءُ.

فينبغي للعاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على عقله ـ أن يدعو الله تعالى على الدوام، بهذه العبارة البليغة، المحكيَّة عن يوسف عليه السلام، لعله يُقبل منه دعاؤه، ويُعطى سؤلَه ومتمنّاه، من الوفاة على الإسلام، واللّحاقِ بالصالحين.

اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

«دعوات سليمان عليه السلام»

وقد حكي عن سليمان عليه السلام قوله تعالى في سورة «النمل»:

أولاً: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه: ألهمني.

---

(١) سورة النمل آية رقم (١٩).

قال صاحب الصحاح: استوزعتُ اللهَ، فأوزعني أي استلهمتُه فألهمني.

وقيل: ﴿ أَوْزِعْنِي ﴾ كُفَّني وازجرني عن الموانع، حتّى أشكر نعمتك.

أدْرَج فيه ذكرَ والديهِ تكثيراً للنعمة، أو تعميماً له، فإنَّ النعمة عليها نعمةٌ عليه، والنِّعمةُ عليه يرجعُ نفعُها إليهما، سيَّما الدينية، كما في «أنوار التنزيل».

قوله: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾.

اعلم أنه عليه السلام طلب من الله تعالى ثلاثةَ أشياء:

أحدها: أن يُلهمه اللهُ تعالى ويوفِّقه الشكر على نِعَمه، التي أنعمها عليه، وعلى والديه، سيَّما على نِعْمةِ الإسلام، التي هي فوق كل نِعْمة.

والثاني: أن يُلهمه ويوفُّقه العملَ الصالح، المرضيَّ عنده سبحانه وتعالى.

والثالث: طلَبَ من اللهِ تعالى حُسْنَ العاقبةِ والخاتمةِ، لأن الصَّالح من عباده، مَنْ هو مختومٌ له بالسعادة.

وهذا يدل على أنه لا يتمُّ شيء من الطاعات والأعمال، إلا بعون الملك المتعال، ولو كان العبد مستقلاً بأفعاله، لكان

هذا الطلب عبثاً، كما صرَّح به الإمام فخر الرازي في تفسيره.

«تنبيـه»

يجوز للداعي أن يدعو الله تعالى بهذه الألفاظ الفصيحة، والكلمات اللطيفة، المشتملة على هذه المطالب العليَّة، المحكية عن «سليمان» عليه السلام، من غير تأويل، ولا صرفٍ عن ظاهره، إن كان والداه مؤمنَيْن، متنعِّمَيْن بنعمةِ الإسلام. فينبغي للعاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على عقله ـ أن يدعوَ الله تعالى بهذه العبارة، المحكيَّة عن «سليمان» عليه السلام، ويواظب عليها على الدوام، لعلَّ الله تعالى يُلهمه الشكر على نِعَمه، التي لا تُحصَىٰ، ويُوفِّقه لما يحبُّه ويرضى، ويدخلُه برحمته في عباده الصالحين، يومَ يقوم الناس لربِّ العالمين.

ثانياً: وحُكي أيضاً عن سليمان عليه السلام قوله تعالى في سورة «صٓ»:

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾.

واعلم أن «سليمان» عليه السلام، أحبَّ أن يُخَص بخاصِّيَّته، كما خُصَّ «داود» عليه السلام بإلانة الحديد، و«عيسى» عليه السلام بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه

ـ الأعمى ـ والأبرص، فسأل شيئاً يختصُّ به، كذا قيل.

ويؤيده ما رُوي في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجنِّ، تفلَّت عليَّ البارحة، ليقطعَ عليَّ صلاتي، فأمكنَني اللَّهُ منه فأخذتُه، فأردتُ أن أربطه إلى سارية، من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرتُ دعوةَ أخي سليمان ﴿ ربِّ اغفرْ لي وَهَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي ﴾ فرددته خاسئاً»[1].

ولا ينبغي لنا أن نسأل المُلْك الذي طلبه سليمان عليه السلام بقوله: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ لأنه محال بالنسبة إلينا، فلا يجوز لنا أن نطلب المستحيل، إلا إذا أراد الداعي من مُطْلق المُلْك، منصباً قوياً، ورياسة في الدين، فيجوز له طلبه لنصرة الإسلام، وإنفاذ الشريعة المحمدية، لكنْ لا ينبغي للداعي أن يقول بعد ذلك «لا ينبغي لأحدٍ من بعدي» فتأمل[2].

«دعوات زكريا عليه السلام»

أولاً: وقد حكي عن زكريا عليه السلام قوله تعالى في سورة «آل عمران»:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) وجه التأمل في الأمر، أنه يُشعر بالحسد وعدم إرادة الخير للغير، وليس ذلك من صفة المسلم الذي يحب لأخيه ما يحبه لنفسه.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾.

قوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾.

قوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أي ولداً صالحاً، والذريَّةُ: النَّسْلُ، يقع على الواحد والجمع، والذكر والأنثى، والمراد هنا ولدٌ واحد.

ثانياً: وحُكي عن زكريا عليه السلام أيضاً قوله تعالى في سورة «الأنبياء»:

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدَاً، وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾.

قوله: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدَاً ﴾ أي بلا ولدٍ يُعينني على إقامة دينك.

قوله: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ثناءٌ على الله تعالى، بأنه الحيُّ الباقي، بعد فناء الخلق.

وقيل: معناه: إن لم ترزقني من يرثني فلا أُبالي، لأنك خير الوارثين، كما في تفسير القاضي.

وقيل: معناه: إن تفضَّلْتَ بهبةِ وارثٍ لي، فهو منتُك

وإحسانك، وإلاَّ فكفى بك وارثاً، وأنت خير الوارثين، كما في تفسير النسفي(١).

وقيل: إن زكريا عليه السلام لمَّا مسّه الضُرُّ لتفرُّده، وأحبَّ من يؤنسه ويقوّيه على أمر دينه ودنياه، ويكون قائماً مقامه بعد موته، دعا الله تعالى، دعاء مخلصٍ عارف بأنه تعالى قادر على ذلك، كما في التفسير الكبير.

«تنبيــه»

ينبغي للإنسان أن يطلب ولداً من الصالحين، لأنه من سنن الأنبياء والمرسلين، سيّما بهذه العبارة اللطيفة، المحكية عن زكريا عليه السلام، وفي الحديث الصحيح: (إذا ماتَ ابن آدمَ انقطع عملُهُ إلاَّ من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنْتَفع به، أو وَلَدٍ صَالحٍ يدعُوْ له)(٢)، وفي رواية: «إلاَّ من صدقةٍ جارية»، يعني ينقطع ثوابُ أعماله عن كل شيء، كصلاةٍ وصومٍ ونحوهما، إلاَّ من هذه الثلاثة، فإن ثوابها لا ينقطع أبداً.

ثم إنَّ هذا لا يعارض خبر «مَنْ سَنَّ في الإِسْلَام سُنَّةً

---

(١) أقوى هذه الوجوه القول الأول وهو أنه دعاء وثناء على الله بأنه الحيُّ الباقي بعد فناء الخلق.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم بهذا اللفظ.

حَسَنةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلَى يَوْمِ القِيامَةِ..»[1] لأن السُّنَّة المسنونة من جملة العلم المنتفع به، كذا ذكره المناوي في شرح الجامع الصغير.

«دعوات أيوب عليه السلام»

أولاً: وقد حُكي عن أيوب عليه السلام نداؤه ودعاؤه في قوله تعالى في سورة «الأنبياء»:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

لقد راعى الأدب في دعائه، حيث لم ينسب الضُرَّ إلى ربه[2]، مع أنه فاعلُه وخالقه، فلذلك استجاب الله تعالى له دعاءه فقال: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ الآية.

ذكروا في سبب بلائه أقوالاً: أصحُّها أنه ابتلاه الله تعالى بلا زلَّةٍ سبقتْ منه، وله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن، وأنواع الفتن، ليضاعف ثواب الثابتين، ويزيد في عقاب المذنبين، كما في تفسير النيسابوري.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

(٢) هكذا أدب الأنبياء لا ينسبون الشرَّ إلى الله، وإن كانوا يعلمون أنه بقضائه وقدره، كما قال إبراهيم عليه السلام: «الذي خلقني فهو يهدين.. وإذا مرضتُ فهو يشفين» وهذا تعليم لنا وإرشاد.

ينبغي للمؤمن المبتلَى أن يدعو الله تعالى بهذه العبارة اللطيفة الوجيزة، المحكيَّة عن أيوب عليه السلام، ويواظب عليه على الدوام، لعله تعالى يشفيه ويكشف ما به من ضُرّ.

ثانياً: وحكي أيضاً عن أيوب عليه السلام نداؤه ودعاؤه في سورة «صٓ» في قوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ والإسنادُ إلى الشيطان، لأن المراد من «النُّصْب[1] والعذاب» ما يلحقه من وسوسته لا غير، كما في تفسير القرطبي.

والدليل عليه قوله تعالى حكايةً عن إبليس اللعين: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ.. ﴾ الآية.

وهذا صريح في أن الشيطان، لا قدرة له في حق البشر، إلا بـإلقـاءِ الوساوس والخواطر.

والقائلون بهذا القول، اختلفوا في أن تلك الوساوس كيف

---

(١) النُّصْب: بضم النون المشدَّدة معناه: التعبُ والمشقَّة الزائدة في البدن، ويُقال: النَّصَب بفتح الصاد بمعنى التعب وفي الحديث: «ما يصيب المسلمَ من نَصَب ولا وصب..» الحديث.

كانت، وذكروا فيها وجوهاً: أشهرها أن مرضه عليه السلام كان شديد الألم، ثم طالت مدة ذلك المرض، والشيطان كان يذكِّره النِّعم التي كانت، والآفات التي حصلت، وكان عليه السلام يحتال في دفع وساوسه، فلما قويت تلك الوساوس في قلبه، التجأ وتضرَّع إلى ربه الجليل، في أن يكفيه ذلك، بكشف البلاء أو بالتوفيق لرفعها وردِّها بالصبر الجميل، هذا خلاصة ما ذكره الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير، والإمام الهُمام ابن عادل الحنبلي في تفسيره المسمَّى بلباب التفاسير.

«تنبيـــه»

قد ثبت بالنص، أن الشيطان لا قدرة له في حق البشر، إلاّ بإلقاء الوساوس والخواطر[1]، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ لا غيرُ كما بيَّناه، فمن ابتلي بالوساوس والخواطر، ينبغي له أن يدعو الله تعالى بهذه العبارة البليغة، المحكيَّة عن أيوب عليه السلام، ويواظب عليه على الدوام، لعلَّه تعالى يُنجِّيه مما ابتُلي به من الوساوس والخواطر، ويكشف ما به من ضُرّ. ولكنْ لا بدَّ له أن يقول بعد ذلك «وأنتَ أرحم الراحمين».

---

(١) ولهذا أمرنا تعالى بالاستعاذة من شر همزاته ولمزاته ووساوسه: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أعوذُ بكَ من هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين. وأعوذُ بكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوْنَ ﴾.

«دعوات يونس عليه السلام»

أولاً: وقد حُكي عن يونس عليه السلام نداؤه ودعاؤه في قوله تعالى في سورة «الأنبياء»:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

أي من العاصين الواضعين الأشياء في غير مواضعها، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، كما حُرِّر في محله.

وقيل: أي من الناقصين حظوظهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً ﴾.

وقيل: من الضّارين لأنفسهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.. ﴾ الآية.

وقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾ أي لا معبود سواك، ولا نعبد إلا إيّاك.

قوله: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي انزّهك تنزيهاً، و«سبحان» اسم بمعنى التسبيح، الذي هو التنزيه، وانتصابه بفعل مضمر تقديره: أسبّحك سبحان أي أقرُّ وأعتقد أنك أنت الإله المنزّه، المتعالي عما يقول الظالمون عُلُوّاً كبيراً.

لقد راعى «يونس» عليه السلام من دقائق الأدب، وأنواع

حسن الطلب، ما يجبُ رعايتُه، فلا جَرَم استجابَ اللهُ دعاءه فقال: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ ﴾.

أ ـ روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مَكْرُوبٍ يدعو بِهَذا الدُّعَاءِ إِلاَّ اسْتُجِيبَ له».

ب ـ وفي رواية أخرى: «دعوةُ ذي النُّوْنِ مَا دَعَا بها مؤمنٌ إلاَّ اسْتُجِيبَ له»[1].

جـ ـ وعن سعيد بن أبي وقاص أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«هل أدلُّكُمْ على اسمِ اللّهِ الأعظم؟ هو ما دعا به يونس عليه السلام، فقال رجل: يا رسولَ الله، كانت ليونسَ خاصَّة، قال: ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ ﴾»[2]؟.

قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء الكامل، ننجي المؤمنين من الغمِّ، إذا دعوا الله بالإخلاص.

وقيل: ننجي من تكلم بهذه الكلمات.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي بلفظ: «دعوةُ ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء إلا استجاب له».

(٢) أخرجه ابن جرير عن سعيد بن أبي وقاص مرفوعاً، ورواه بمثله ابن أبي حاتم.

د ـ وعن الحسن[1] أنه قال: «ما نجّاه واللّهِ إلا إقراره على نفسه بالظلم، وهو فَعَل الفاضلَ وتَرَك الأفضل، وكان الأفضل أن يرجع إلى قومه شفقةً عليهم، وإن كان ذهابُه فاضلاً لأنه غاضبهم في الله، كما في تفسير الشيخ عمر النسفي».

«تنبيـــه»

يجـوز الدعـاء بهذه الكلمـات الجليلة، المحكيّـة عن «يونس» عليه السلام، لأنه مطابقٌ لحال الـداعي وموافق لمطلوبه.. فإنه مشتملٌ على توحيد الله تعالى، وتنزيهه عما لا يليق بذاته وصفاته، اعتراف الداعي بكونه من الظالمين النادمين لظلمه وذنوبه.

ولذلك وردت في فضيلة الدعاء بها الأحاديث والآثار.. فينبغي للعاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على عقله ـ أن يواظب عليها آناء الليل وأطراف النهار، لَعلّه تعالى يُنجّيه ممّا يغتمّ به ويخاف، ويعطيـه ما أراده من المغفـرة والثواب، وحسن المآب.

«دعوات شعيب عليه السلام»

أولاً: وحكي عن شعيب عليه السلام قوله تعالى في سورة «الأعراف»:

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا

بالحَقِّ، وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ ﴾[1].

الفتح: أصلُه فتح الباب، ويُقال للآلة التي يفتح بها الباب المغلق مفتاح.

واعلم أن الفتح قد يكون بمعنى الحكم، والحقُّ بمعنى العدل، كما في هذه الآية.

والمعنى: ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالعدل، وأنت خير الحاكمين، وذلك لأن الحاكم يفتح الأمر المغلَق بين الخصمين، وقد يراد بالحق ما يقابل الباطل، والمعنى: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ، أي بإظهار الحق، ونجاة أربابه، وبيان الباطل، وإهلاك أصحابه.

فعلى هذا الوجه بالفتح يُراد به: الكشفُ والتّبيينُ.

قوله: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ ﴾ أي وأنت خير الكاشفين الإشكال بين الخلق.

والفتحُ في الحرب: يُراد به النَّصْرُ والظَّفر[2].

فمعنى الفتاح: مبدع الفتح والظفر، وقد استقصينا الكلام في معاني الفتح في تفسير أسماء الله الحسنى.

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (٨٩).

(٢) ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً.. ﴾.

«تنبيـــه»

إذا وقعت بيننا وبين الكفار محاربة ومقاتلة، أو وقعت بين المسلمين خصومة ومنازعة في أمر الدين والدنيا، يجوز لنا أن ندعو الله تعالى بهذه الكلمات اللطيفة، والعبارات الفصيحة، المحكية عن شعيب عليه السلام، ونصرفها إلى ما يليق بأحوالنا، والله تعالى أعلم.

«دعوات موسى عليه السلام»

أولاً: وقد حكي عن موسى عليه السلام قوله تعالى في «سورة الأعراف»:

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ أي في رحمتك التي وسعت كل شيء، كما في تفسير الكواشي.

وقيل: في أهل رحمتك، وقيل: في جنتك[1].

«تنبيـــه»

قوله: ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ من الأسماء المختصّة

(١) وعلى هذا يكون فيه استعارة حيث أطلق الحالّ وأراد المحل، لأن الجنة مكان الرحمة، كما قال سبحانه: ﴿ وأما الذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ أي في الجنة.

بالله تعالى، وقد قيل: إنه هو «الاسم الأعظم» من أسماء الله الحسنى، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، لما فيه من التعرض للرحمة الواسعة، التي تقتضي إجابة المضطرين، فينبغي للمؤمن أن يدعو لنفسه ولأخيه المؤمن بالمغفرة والرحمة، سيّما بهذه الألفاظ الفصيحة المحكيّة عن موسى عليه السلام، ويستغفر لأبيه، وأمه، وصاحبته، وبنيه، وأحبائه وأقربائه، ويسألَ الله تعالى أن يدخلهم في رحمته الواسعة، حتى تكون الرحمة كالظرف وهم كالمظروفين فيها، بأن يقول: رب اغفر لي ولأبي، ربِّ اغفر لي ولأمي، رب اغفر لي ولأهلي وعيالي وأولادي، وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين.

ويواظب الداعي على هذا الدعاء في الصبح والمساء، لعل دعاءه يُسمع، ويُستجاب له، ويُعطى سُؤْله ومتمنّاه، وهو كونه كالغريق في بحر رحمته العميق.

ثانياً: وحكي أيضاً عن موسى عليه السلام قوله في سورة «طه»:

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾[1].

لما قال له سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّه

(١) سورة طه آية رقم (٢٥ ـ ٢٨).

طَغَى ﴾ اظهر عجزه بقوله: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ كما في سورة «الشعراء»، وسأل ربه ما سأل من سعة القلب، وانشراح الصدر، وتيسير الأمر، وانحلال العُقدة التي كانت في لسانه، ليبلغه إلى فرعون كما أمره، ويفهم فرعون وقومه قوله وكلامه، فأجابه الله تعالى حيث قال: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ أي قد أعطيت مسؤولك ومطلوبك يا موسى، من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وحل العقدة، وجعل أخيك وزيراً لك وظهيرا.

«تنبيــه»

واعلم أن سعة القلب، وانشراح الصدر، وتيسير الأمور المشكلة، وتسهيل الأشياء المأمور بها، مطلوب لكل أحد.. فينبغي للعاقل أن يطلب ذلك بهذه العبارة البليغة المحكيَّة عن موسى عليه السلام، ويصرفها بقلبه إلى ما يليق بحاله، بأن يقول: يا رب وسِّع وفسِّح قلبي بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك، وبالتخلُّق بأخلاق أنبيائك، ورسُلك عليهم السلام، ويسِّرْ لي جميع الأمور المشكلة، وسهِّل عليَّ جميع الأشياء المأمور بها، واجعل كل ما كان صعباً عليَّ سهلاً، فإنه لا سهل إلا ما جعلته سهلاً.

والأمرُ في قوله: ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ يمكن أن يُراد به كلا المعنيين كما أشرنا إليه.

قوله: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾.

قيل: إنه كان في لسانه عليه السلام عُقدة، حصلت من جمرةٍ أدخلها في فيه.

وقيل: كانت تلك العقدة خِلْقة ذاتية، فسأل الله تعالى إزالتها.

قوله: ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ أي يفهم فرعون وقومه قولي وكلامي.

يجوز للداعي أن يسأل انحلال العُقدة الحاصلة في لسانه، إن كانت حاصلة فيه، وإلاّ فلا، إلاّ إذا كان في لسانه ثِقَلٌ، وأراد بانحلال العقدة إزالة الثقل، الحاصل في لسانه، وأراد بقوله: ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ فقاهة المخاطبين قوله، وفهم كلامه، سيما في مجلس الوعظ والتدريس وتعليم القرآن، فالظاهر جوازه، والله أعلم.

ثالثاً: وحُكي أيضاً عن موسى عليه السلام قوله تعالى في سورة «القصص»:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وإنما استغفر موسى عليه السلام من قتل[1]

---

(١) لم يقصد موسى قتل القبطي عمداً، وإنما أراد دفعه، فكانت القاضية، كما قال تعالى: ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ أي ضربه لكمة بيده فمات ومثل هذا لا يقتل.

الكافر الحربي، لأنه لم يُؤمر بقتله، ولم يؤذن فيه، كما في تفسير النيسابوري.

ثم لم يزل عليه السلام يعدُّ ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غُفر له، حتى إنه في القيامة يقول: إني قتلتُ نفساً لم أومر بقتلها، كما في تفسير القرطبي.

«تنبيـــه»

ينبغي للعاقل أن يواظب على هذا الدعاء، المحكيّ عن موسى عليه السلام، ويصرفه بقلبه إلى ما يليق بحاله بأن يقول: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي في مدة هذا العمر الطويل، بارتكاب أنواعٍ من المعاصي، وأصنافٍ من المناهي ﴿ فَاغْفِرْ لِيْ ﴾ أي ذنوبي كلها، قليلةً كانت أو كثيرةً، صغيرة كانت أو كبيرة، فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، إني تُبْتُ إليك وإني من المسلمين أي من المخلصين الدِّينَ والعقيدة لله ربِّ العالمين.

«دعواتُ عيسى عليه السلام»

أولاً: وقد حُكي عن عيسى عليه السلام قوله تعالى في سورة «المائدة»:

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ،

تَكُوْنُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا، وَآيَةً مِنْكَ، وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾.

قوله: ﴿ اللّهُم رَبَّنا ﴾ نادى ربَّه سبحانه وتعالى مرتين: مرَّةً بوصف «الألوهية» الجامعة لجميع الكمالات.. ومرَّ بوصف «الربوبية» المنبئة عن التربية، إظهاراً لغاية التضرع، ومبالغةً في الاستدعاء.

والتقدير: يا أَللّهُ[1]، يا ربَّنا، كما في تفسير أبي السعود.

قوله: ﴿ أَنْزِلْ عَلَيْنا مَائِدَةً ﴾ المائدةُ: الخِوانُ الذي عليه الطعام، ولا يسمى مائدة إذا لم يكن عليه طعام، إنما يقال: خِوَانٌ أي طبق.

وأصلها من مادَ يميد إذا تحرَّك، كأنها تميد بما عليها من الطعام[2].

قوله: ﴿ مِنَ السَّماءِ ﴾ أي كائنة من السماء نازلة منها.

---

(١) اللهمَّ معناه يا ألله، وهذا هو أصل الكلمة، حذفت ياء النداء وأبدل عنها بالميم فأصبحت: اللهمَّ، ولذلك لا يقال: يا اللهمَّ.

(٢) كان هذا السؤال من الحواريين في ابتداء أمرهم، قبل استحكام معرفتهم بالله عزَّ وجلَّ وبعظمته وجلاله، ويجوز أن يكون ذلك صدر من بعض الجهال ممن كان معهم، كما قال بعض الجاهلين لموسى: ﴿ اجْعَلْ لَنا إِلَهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ والأولى أن يقال: إن هذا كان من الحواريين لطلب رؤية المعجزة بأعينهم، وللطلب والتثبُّت وليس للشك وعدم اليقين كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى؟.. ﴾ الآية.

قوله: ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾ صفة للمائدة وليس بجواب الأمر، وقُرِئ: «تَكُنْ» على جواب الأمر.

والعيدُ في اللغة: اسم لما عاد إليك في وقت معلوم، واشتقاقه من عادَ يعود، فأصله هو العود، وسمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح وسرور، كما في التفسير الكبير.

قوله: ﴿ لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا.

وقيل: المراد يأكل أولنا وآخرنا.

قوله: ﴿ وَآيَةً مِنْكَ ﴾ عطفٌ على عيداً، والمعنى تكن المائدة عيداً لنا، وتكن لنا آية دالّةً على كمال قدرتك ووحدانيتك، وحجةً على صدق رسولك.

قوله: ﴿ وارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ عطفٌ على مقدَّر أي أعطنا ما سألنا، وارزقنا وأنت خير الرازقين، لأنك خالق الرزق بلا غرض، ومعطيه بلا عوض.

والظاهر أن المائدة نزلت، لأنه تعالى ذكر ذلك بقوله: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ وبإنزالها قال الجمهور.

قال المؤرخون: كانت تنزل عند ارتفاع الضحى فيأكلون منها، ثم تُرفع إلى السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض.

واختلفوا في كيفيّة نزولها؟ وفيما كان عليها؟ وفي عدد مَنْ

أكل منها؟ وفيما آل حالُ من أَكَل منها ومن لم يأكلْ؟ اختلافاً مضطرباً متعارضاً، ذكره المفسرون، ضربتُ عنه صفحاً، إذْ ليس فيه شيء يدلُّ عليه لفظ الآية، ولا خبرٌ صحيح عن النبي ﷺ كما في البحر المحيط.

«تنبيـــه»

واعلم أن الدعاء المحكيَّ عن عيسى عليه السلام وهو قوله: ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾.

نِعْم الدُّعاءُ، ونعم المطلوب، بالنسبة إليه عليه السلام، لكون إنزالها آيةً دالة على صدقه، ومعجزةً باهرة من معجزاته.. وأما بالنسبة إلينا فلا يستقيم، إلاّ بحمل المائدة على «حقائق المعارف» لأنها غذاء الأرواح، كما أن الأطعمة غذاء الأشباحَ، كما نُقل عن البعض، لكنه بعيدٌ جداً[1].

والحقُّ أن الدعاء بهذه العبارة، المحكية عن عيسى عليه السلام، غير جائزة لأمثالنا.

وأما الدعاء المحكيُّ عنه بعد ذلك، وهو قوله: ﴿ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فهو مطابقٌ لحال الداعي، وموافق

---

(١) هذا من تفسيرات أهل الإشارة كالصوفية وأمثالهم، وهو كما قال الشيخ بعيد وضعيف.

لمطلوبه.. فينبغي له أن يدعو الله تعالى، بهذه العبارة البليغة، المحكية عن عيسى عليه السلام، ويواظب عليه على الدوام، لعلّ الله تعالى يرزقه خير الدارين، والفوز في الحياتين، بفضله وكرمه.

* * *

الفَصْلُ الثَّانِي

فيما حكي عن الأمم الماضية من دعوات

«دَعَواتُ الحواريِّين أصحاب عيسى عليه السلام»

قد حُكي عن الحواريين[1] من أصحاب عيسى عليه السلام قوله تعالى في سورة «آل عمران»:

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ، وَاتَّبَعْنَا الرَّسُوْلَ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

قوله: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ أي بالذي أنزلته على عيسى عليه السلام من الكتاب وهو الإنجيل.

قوله: ﴿ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُوْلَ ﴾ يعنون به عيسى عليه السلام.

قوله: ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصِّدق، واتبعوا أمرك ونهيك، فأثبتْ أسماءنا مع أسمائهم، واجعلنا في أعدادهم ومعهم، فيما تكرمهم به.

---

(١) الحواريون: هم الخُلَّص الكمَّل من أصحاب عيسى بن مريم، سموا حواريين من الحَوَر وهو البياض لصفاء قلوبهم، ونقاء سريرتهم، وهم كصحابة الرسول ﷺ هؤلاء صحابة، وأولئك حواريون.

«تنبيــه»

واعلم أن الدعاء المحكيَّ عن الحواريين وهو قولهم: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ الآية.

لا يجوز للداعي أن يدعو بهذه العبارة المحكيَّة منهم، إلا بالتأويل، والصرف عن الظاهر، فإذا قال الداعي: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ يعني به ما أنزلته على رسولنا محمد ﷺ وهو القرآن، وإذا قال: ﴿ واتَّبَعْنَا الرَّسُوْلَ ﴾ يعني به رسولنا محمداً عليه الصلاة والسلام، فإن الإيمان بالقرآن إيمان بجميع الكتب الإلهية، والإيمان بمحمد ﷺ إيمانٌ بجميع الأنبياء عليهم السلام.. وإذا قال الداعي: ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ يعني بهم محمداً وأمته، فإنهم يشهدون للرسل بالبلاغ، وهم مخصوصون بتلك الفضيلة، كما سيجيء تفصيله إن شاء الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ من الأدعية المذكورة في الفصل الرابع.

«دعاء السحرة الذين استعان بهم فرعون»

وحكى عن سحرة فرعون من أصحاب موسى عليه السلام قوله تعالى في سورة «الأعراف».

﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أي ثابتين على الإسلام.

قوله: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ معنى الإفراغ في اللغة: الصبُّ، وأصله من إفراغ الإناء، وهو صبُّ ما فيه بالكلية، فكأنهم طلبوا كلَّ الصبّ لا بعضه.

«تنبيـــه»

ينبغي للعاقل أن يواظب على هذا الدعاء، المحكيّ عن سَحَرة موسى عليه السلام، لأن فيه سؤالاً بأن يَصُبَّ عليهم الصَّبر صَبّاً، حتى يكون مستعلياً ويكون لهم كالظرف وهم كالمظروفين فيه، كما في البحر المحيط.

وفيه طلب لأن يجعل الله وفاتهم على الإسلام، فنعم السؤال ونعم المطلوب، اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

«دعاء أصحاب موسى عليه السلام»

وحُكي عن بعض الواصلين، من أصحاب موسى عليه السلام، قوله تعالى في سورة «يونس»:

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

---

(١) في الآية قولان للمفسرين: الأول معناه لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى نفتتن عن ديننا. والثاني ومعناه: لا تسلطهم علينا حتى يفتتنوا بنا ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما تمكنّا منهم أو لما أصيبوا، وقد أشار المؤلف رحمه الله إلى القولين.

قوله: ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيعذبونا، أو يفتنونا عن ديننا، أو يفتتنوا بنا ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا، كذا في تفسير أبي السعود.

قوله: ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

أي من كيدهم وشؤم مشاهدتهم.

«تنبيـــه»

ينبغي للإنسان أن يدعو الله تعالى بهذه العبارة البليغة، المحكية عنهم سيّما عند استيلاء الكفار على أهل الإسلام كما في زماننا.

ولكن يصرفه إلى ما يليق بحاله، فإن كان من القاعدين، يريد بقلبه عساكر الإسلام، وجيوش الموحّدين.

«دعاء طالوت وجنوده المؤمنين»

وحُكي عن «طالوت» وجنوده المؤمنين من ملوك الأمم الماضية، لما برزوا لقتال «جالوت» وجنوده المشركين من العمالقة قوله تعالى في سورة «البقرة»:

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوْا لِجَالُوْتَ وَجُنُوْدِهِ قَالُوْا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً،

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

قوله: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ وفيه سؤال بأن يصبَّ الله عليهم الصبر صبًّا، حتى يكون مستعلياً، ويكون لهم كالظَّرف، وهم كالمظروفين فيه.

والصبرُ مذكورٌ بصيغةِ التنكير، وذلك يدل على التمام والكمال أي افرغْ علينا صبراً تاماً كاملاً، كقوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ أي على حياة تامة كاملة، كذا في التفسير الكبير.

قوله: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ أي على دينك، أو في مواطن الحرب ومواضع القتال، بتقوية قلوبنا، وإلقاء الرعب في صدور أعدائنا.

قوله: ﴿ وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي اعِنَّا عليهم، وادفع شرَّهم عنا.

«تنبيـه»

ينبغي للعاقل أن يدعو لنفسه ولسائر الموحّدين من غُزاة المسلمين، بهذه العبارة المحكية عن طالوت وجنوده المؤمنين، ويواظب عليها آناء الليل وأطراف النهار، سيمّا

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٥٠).

عند استيلاء الكفار والفجار، على الأبرار والأخيار كما في زماننا.

«دعاء الربَّانيين من الأمم الماضية»

وحكي عن الربَّانيِّين[1] من الأمم الماضية، لمَّا قاتلوا لإعلاء كلمة الله تعالى، وإعزازِ دينه، قوله تعالى في سورة «آل عمران»:

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[2].

قوله: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ قيل: المراد بالذنوب المعاصي القاصرة، وبالإسراف: المظالم المتعدية، كذا في تفسير الملاّ علي القاري. أو المرادُ بأحدهما الصغائر، وبالآخر الكبائرُ.

قوله: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ أي على دينك، أو في مواطن الحرب ومواضع القتال، بالتقوية والتأييد من عندك.

قوله: ﴿ وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي أَعِنَّا عليهم وادفع عنا شرَّهم.

---

(١) الربانيون: جمع رباني وهو العبد المؤمن المخلص لربه الذي أسلم نفسه لله، نسبة إلى الرب جل وعلا.

(٢) سورة آل عمران رقم الآية (١٤٧).

«تنبيـــه»

ينبغي للعاقل أن يدعو الله تعالى بهذه الألفاظ الفصيحة، والكلمات اللطيفة، المحكية عن هؤلاء الربانيّين، ويواظب عليها آناء الليل وأطراف النهار، سيما عند استيلاء الكفرة الفجرة على المسلمين الكرام، كما في زماننا.

«دعاء أصحاب الكهف من الأمم الماضية»

وحكي عن أصحاب الكهف من الأمم الماضية قوله تعالى في سورة «الكهف»:

﴿ إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ، فَقَالُوْا: رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدَاً ﴾[1].

قوله: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أي أعطنا من محض فضلك وكرمك، من غير استحقاقٍ ذاتيّ منّا، رحمةً كثيرةً، كافيةً لمعاشنا ومعادنا.

قوله: ﴿ وَهَيِّىءْ لَنَا ﴾ من قولك هيَّأتُ الشيء، فتهيأ، وأصلُ التهيئة: إحداثُ هيئةِ الشيء، والرُّشْدُ والرَّشادُ: نقيضُ الضَّلال.

وفي تفسير هذا القول وجهان:

---

(١) سورة الكهف آية رقم (١١).

الوجه الأول: أن يكون التقديرُ: وهيِّئ لنا من أمرنا أمراً ذا رُشْد، حتى نكون بسببه راشدين مهتدين.

والوجه الثاني: أن يكون التقدير واجعل أمرنا كله رشداً أي إصابة للطريق واهتداءً إليه.

«تنبيــه»

يجوز للداعي أن يدعو الله تعالى بهذه العبارة البليغة، المحكية عن أصحاب الكهف، بلا تأويل ولا صرف عن ظاهره.

«دعاء بلقيس ملكة سبأ»

وحكي عن بلقيس[1] التي أسلمت على يد سليمان عليه السلام قوله تعالى في سورة «النمل»:

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

قال مقاتل: لما رأت السرير والصَّرْح، علمت أن ملك سليمان من الله تعالى، فقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي بعبادة غيرك.

---

(١) بلقيس هي ملكة سبأ التي قصّ الله تعالى علينا قصتها مفصلة في سورة «النمل»، وقد أسلمتْ على يد سليمان عليه السلام وذكر في قوله: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ.. ﴾ الآية.

قولها: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ من أسلم وجهه لله إذا أخلص.

والمعنى: أخلصتُ الدِّينَ والعقيدةَ، للّهِ ربِّ العالمين.

﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ مَعَ ظرفٌ بُني على الفتح، متعلقٌ بمحذوف على أنه حال، لا متعلق بأسلمتُ، لأنَّ إسلامه عليه السلام، سابقٌ لإسلامها بزمان طويل.

واختلفوا في أن «سليمان» عليه السلام هل تزوجها أم لا؟ الأظهر في كلام الناس أنه تزوَّجها، وليس لذلك ذِكرٌ في كتاب الله تعالى، ولا خبر صحيح عن النبي ﷺ، ذكره أبو حيان في البحر المحيط.

«دعاء آسية امرأة فرعون»

وحُكِي عن آسية امرأة فرعون قوله تعالى في سورة «التحريم»:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ، إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

قولها: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ ﴾ فكأنها أرادت الدرجة العالية، لأنه تعالى منزَّه عن المكان[1]، فعبَّرتْ عنها بقولها:

---

(١) الله تعالى على عرشه كما أخبر، والعرش فوق السموات كلها قد أحاط بها، وهذا مذهب السلف.

﴿ عِنْدَكَ ﴾[(1)] كما في مدارك التنزيل.

قولها: ﴿ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ ﴾ وهي جنة المأوى، وهي أقرب إلى العرش الأعلى.

قولها: ﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أي من عمل فرعون ونفسه الخبيثة، خصوصاً من عمله الذي هو الكفر والظلم والتعذيب.

وقيل: ﴿ وَعَمَلِهِ ﴾ أي وجماعه، ولا يضرُّها كونها كانت تحت فرعون اللعين، ولا يُنقص من ثوابها.

وذكر المفسرون أنواعاً مضطربة في تعذيبها، وليس في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة، أنها عُذِّبت.. والظاهر أن فرعون لما عرف أنها آمنت بموسى عليه السلام، أمر بتعذيبها فعند ذلك قالت: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فنجَّاها الله تعالى أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتنعَّم فيها[(2)]، كما في البحر المحيط.

---

(1) في قول آسيا: ﴿ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ ﴾ نظرٌ دقيق، حيث فضَّلت وقدَّمت الجار على الدار، فهي تطمع في جوار الله تعالى، ولهذا قالت: ﴿ عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ ﴾ فغرضها جوار الرحمن فتنبه.

(2) لما آمنت قتلها فرعون فنالت الشهادة في سبيل الله، فهي تتنعم في دار الخلد والكرامة، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، اللهم ارزقنا الشهادة في سبيلك، واجعل مثوانا في بلد حبيبك ﷺ.

وفي هذا دليل على الالتجاء إلى الله تعالى عند المحن والمصائب والبلايا، وسؤال الخلاص منها، وأن ذلك من سيرة الصالحين، وسنن الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

«تنبيه»

واعلم أنه لا يجوز الدعاء بالعبارة المحكية عن بلقيس التي أسلمت على يد «سُليمان» عليه السلام، وكذلك لا يجوز الدعاء بالعبارة المحكية عن «آسية» امرأة فرعون، لكونهما خلاف الواقع بالنسبة إلينا.

الفَصلُ الثَالِثُ

في أدعيةٍ أُمر بها الرسول ﷺ

أما الأدعية التي أُمر بها خاتم الأنبياء والرسل ﷺ والمصدَّرة بقوله: ﴿ رَبِّ ﴾ فذلك في مواضع من الكتاب العزيز:

أولاً: منها قوله تعالى في سورة «بني إسرائيل»:

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾.

قوله: ﴿ ربِّ أَدْخِلْنِي ﴾ أي في القبر.

قوله: ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أي إدخالاً مرضياً.

قوله: ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ أي وأخرجني من القبر عند البعث إخراجاً مرضياً، ملقًى بالكرامة.

فهو تلقين للدعاء بما وعده من البعث المقرون بالإقامة المعهودة، التي لا كرامة فوقها.

وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة(1)، لأن

---

(1) هذا القول هو الأظهر وهو الأشهر عند المفسرين، فقد دعا ﷺ بهذا =

الآية نزلت حين أمر ﷺ بالهجرة.

وقدّم الإدخال مع تأخره في الوجود، لأنه المقصود من الإخراج.

قوله: ﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾.

أي حجة واضحة من المعجزات والآيات البيّنات، تنصرني على من خالفني.

أو مُلْكاً ينصر الإسلام على الكفر.
أو مُلْكاً أقيم به دينك.

وقيل: سأل النبي ﷺ سلطاناً نصيراً لكتاب الله تعالى وحدوده وإقامة دينه كما في تفسير البغوي، فإن السلطان عزة من الله تعالى، جعلها بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، كما صرح به السيوطي في تفسيره الموسوم بالدر المنثور في التفسير بالمأثور.

ثانياً: ومن الأدعية المأمور بها نبينا محمد ﷺ، قوله تعالى في سورة «طه»:

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمَاً ﴾ أي بفوائده ومنافعه.

أمر الله حبيبه بأن يسأل منه زيادة العلم، لأنه لا إحاطة

= الدعاء عندما خرج مهاجراً من مكة، وقال وهو يودّعها: «إنك لأحبُّ البلاد إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك».

لأحدٍ بجميع العلوم، إلا للّه تعالى، كما في عيون التفاسير.

قال القشيري: إن رسول الله ﷺ إذا كان أعلم البشر، ومن شهد له الحق بخصائص العلم بقوله: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾، ثم قال له: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمَاً ﴾ علم أنَّ ما يخصُّ الحقُّ به أنبياءه وأولياءه، من لطائف العلوم، لا يُتصوَّر إحصاؤه ولا انتهاؤه.

وقيل: ما أمر الله تعالى رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في طلب العلم.

قال الإمام الفخر الرازي والنيسابوري في أول الكتاب الكريم قبل شروعهما في التفسير: «إن العلماء من أهل الجنة، وذلك لأن العلماء من أهل الخشية، وكلُّ من كان من أهل الخشية كان من أهل الجنة»[1].

بيان أن العلماء من أهل الخشية قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾.

وبيان أن أهل الخشية من أهل الجنة، قوله تعالى:

---

(١) هذا في العلماء العاملين، الذين قرنوا بين العلم والعمل، وأما العالم الذي لا يتقي الله ولا يعمل بموجب علمه فهو من الهالكين، لأن علمه يكون وبالاً عليه كما قال سبحانه عن بلعم بن باعوراء: ﴿ فمثله كمثل الكلب ﴾ الآية، وقال الشاعر:

لو كان في العلم من دون التقى شرف
لكان أشرف خلق الله إبليس

﴿ جَزَاؤُهُمْ عندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾.

فالعلماء من أهل الجنة، وذلك لكلمة ﴿ إنَّما ﴾ المفيدة للحصر في قوله: ﴿ إنَّما يَخْشَى ﴾ ولأجل لام الاختصاص في قوله: ﴿ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾.

والسبب أن العلماء هم أهل الخشية، أنَّ من لم يكن عالماً بالشيء، استحال أن يكون خائفاً منه.

ثم إن العلم بالذات لا يكفي في الخوف، بل لا بدَّ معه من العلم بأمور ثلاثة:

أحدها: العلم بالقدرة؛ لأن الملك عالم باطلاع رعيته على أفعاله القبيحة، لكنهم لا يخافهم لعلمه بأنهم لا يقدرون على دفعه.

وثانيها: العلم بكونه عالماً، لأن السارق من مال السلطان يعلم قدرته، لكنه يعلم أنه غير عالم بسرقته فلا يخافه.

وثالثها: العلم بكونه حكيماً، فإن المسخرة[1] عند السلطان عالم بكون السلطان قادراً على منعه، عالماً بقبائح أفعاله، لكنه يعلم أنه قد يرضى بما لا ينبغي، فلا يحصل

---

(١) المسخرة: الرجل الذي يسخر الناس منه لأنه يأتي بالهزل والسفه.

الخوف له، أما لو علم اطلاع السلطان على قبائح أفعاله، وعلم قدرته على منعه، وعلم أنه حكيم لا يرضى بسفاهته، صارت هذه العلوم الثلاثة، موجبة لحصول الخوف في قلبه، فثبت أن خوف العبد من الله تعالى لا يحصل إلا إذا علم أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، قادر على جميع المقدورات، غير راضٍ بالمنكرات والمحرمات، فإذاً الخوفُ والخشيةُ من لوازم العلم بالله تعالى، وبهذا يعرف نباهة قدر العلم، وشرف أهله، انتهى كلامهما.

واعلم أن العلم الذي هو سبب القرب من الله تعالى، هو الذي يورث الخشية والخوف، وأن أنواع المجادلات ـ وإن دقّتْ وغمضت ـ إذا خلت عن إفادة الخوف والخشية، كان من العلم المذموم.

قال الإمام الفخر الرازي والنيسابوري في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا، فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ.. ﴾ إن هذه الآية من أشدّ الآيات على أصحاب العلم.. وذلك لأن من آتاه الله العلم والدِّينَ، ومال إلى الدنيا، كان مشبّهاً بأخسّ الحيوانات، وهو الكلب اللاهث.. واللهث هو اندلاع اللسان من التنفس الشديد،

الذي يلحق الإنسان وغيره، من شدة الإعياء والعطش، وهو في الكلب طبع.

وتقدير هذا التمثيل على وجهين:

الوجه الأول: أن كل شيء يلهثُ، فإنما يلهث عن إعياء أو عطش، إلا الكلب اللاهث، فإنه يلهث في حال الإعياء وفي حال الراحة، وفي حال العطش، وفي حال الريِّ، فكان ذلك عادةً منه وطبيعة، وهو مواظب عليه لعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك من آتاه الله العلم والدين، وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك الكلب اللاهث، واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لا لأجل الحاجة والضرورة.

والوجه الثاني: أن الرجل العالم إذا توسَّل بعلمه إلى طلب الدنيا، فذلك إنما يكون لأنه يورد عليهم أنواع علومه، ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولا شك أنه عند ذكر تلك الكلمات، وتقرير تلك العبارات يُدلع لسانه ويُخرجه، لأجل ما تمكَّن في قلبه من حرارة الحرص، وشدة العطش، إلى الفوز بالدنيا، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبداً، من غير حاجة ولا ضرورة، بل لمجرد نفسه الخبيثة، وطبيعته الخسيسة.

وأما قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ فالمعنى أن

هذا الكلب إن شُدَّ عليه وهُيِّج لهث، وإن تُرك أيضاً لَهَث، لأجل أن ذلك الفعل القبيح طبيعةٌ أصلية له، فكذلك هذا الحريص الضالُّ إن وعظتَه فهو ضال، وإن لم تعظْه فهو ضال، لأجل أن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية وطبيعة ذاتية له.

ومحلُّ الجملة الشرطية النَّصبُ على الحال، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً لاهثاً في الأحوال كلها.

اللهمَّ انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً.

ثالثاً: ومن الأدعية المأمور بها نبينا ﷺ قوله تعالى في سورة «المؤمنون»: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾:

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوْذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوْنَ ﴾.

قوله: ﴿ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ أي من نزغات الشياطين، ووساوسهم الشاغلة عن ذكر اللهِ عزَّ وجلَّ.

قوله: ﴿ وَأَعُوْذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوْنَ ﴾ أي يحوموا حولي في كل حال ومحل، لا سيما حال الصلاة، وقراءة القرآن، وحلول الأجل[1].

---

(١) المراد بحلول الأجل: عند الوفاة ومعاينة سكرات الموت، فإن الشيطان يأتي للإنسان بصورة ناصح أمين، يريد أن يصدّه عن النطق بالشهادة =

وتخصيصُ حال الصلاة وقراءة القرآن كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وحلول الأجل كما روي عن عكرمة رضي الله عنه، لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة. وإنما أُمر النبي ﷺ بأن يعوذ به تعالى من حضورهم، بعدما أُمر بالعوذ من هَمَزاتهم، للمبالغة في التحذير عن ملابستهم.. وإعادة الفعل مع تكرار[1] النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به، كما في تفسير أبي السعود.

رابعاً: ومن الأدعية المأمور بها نبينا ﷺ قوله تعالى في آخر سورة «المؤمنون»:

﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

واعلم أن رحمةَ الله أقدم، وأكمل، وأكثر من رحمة العباد بعضهم لبعض.. لأن رحمتهم مسبوقة برحمته تعالى، وملحوقة بإحسانه، فلولا أنه تعالى خلق الدواعي والإرادات في قلوبهم، لاستحال صدور تلك الرحمة عنهم.

= ليموت على غير الإيمان، فنعوذ بالله من شر الشياطين، وكذلك عند الصلاة يحضره الشيطان ليضيع عليه صلاته ويشغله فيها عن التذكر والخشوع والخضوع، وكذلك عند ذكر الله كما قال سبحانه: ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا.. ﴾ الآية.

(١) المراد بتكرار الفعل قوله: ﴿ وقل رب أعوذ بك... وأعوذ بك رب ﴾ فقد تكرر الفعل وهو «أعوذ» مرتين، وكذلك تكرار النداء مرتين، فتدبر أسرار البلاغة في القرآن.

وأيضاً إن العبد قد يرحم فقيراً ويُنعم عليه، لكن الانتفاع التام بذلك الإنعام، لا يحصل إلا عند العين الباصرة، والأذن السامعة، والمعدة الهاضمة، والصحة في البدن، فلولا أنه تعالى خلق في ذلك الفقير، الصحَّةَ والحواسَّ السليمة، لما أمكن له الانتفاع التام بذلك الإنعام، ولو بُسطتْ عليه الدنيا بحذافيرها.

ولو تأمل الإنسان في أصل جميع النِّعم وهي: الحياةُ، ثم العقلُ والاهتداء، ثم صحةُ البدن وسلامةُ الأعضاء، ثم الأمن من المِحَن والبلاء، ومن شرور الأعداء، يجد كلَّ ذرَّة من ذرَّاتها، أعظم من ملك الدنيا، فحينئذٍ يعلم أن رحمة الله تعالى عليه، وإحسانه إليه، لا تعدُّ ولا تُحصى، كما قال تعالى في مواضع من كتابه: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوْهَا ﴾ فثبت أن رحمة الله تعالى على عباده، وإحسانه إليهم، أقدمُ وأكملُ وأكثرُ، من رحمة العباد بعضهم لبعض.

«تنبيـــه»

وهذه الأدعية المذكورة، المأمور بها النبيُّ ﷺ هل يجوز لنا أن ندعو بكلماتها اللطيفة القرآنية، وألفاظها الفصيحة الفرقانية، من غير تأويل، ولا صرف لها عن ظاهرها أم لا؟ فيها تفصيل:

أما قوله: ﴿ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ.. ﴾ الآية فله تفسيران:

أ ـ أما على التفسير الأول وهو إدخال القبر، والإخراج منه، على المنوال المشروح، فهو مطلوب في حق كل مسلم.

ب ـ وأما على التفسير الثاني وهو إدخال المدينة والإخراج من مكة، على الوجه المذكور، فكذلك لمن أراد السفر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة لزيارة النبي ﷺ.

وأما من أراد السفر من بلد إلى بلد ـ أيِّ بلد كان ـ فالظاهر جوازه، لكنْ يصرفه بقلبه إلى ما أراده من البلاد.

وأما قوله: ﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾ فعلى تفسير السلطان بالحجة الواضحة، من المعجزات والآيات البيِّنات، فمختصٌ بالنبي ﷺ.

وأما على تفسير السلطان بالمُلك على الوجه المشروح فالظاهر جوازه.

وأما على تفسير السلطان بالسلطان النصير لكتاب الله تعالى، وحدوده، وإقامة دينه في كل عصر، فالظاهر أيضاً جوازه، والله تعالى أعلم.

الدعاء الثاني: وأما قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾.

فقد قيل: ما أمر الله تعالى رسوله بطلب الزيادة في شيء، إلا في طلب العلم، فطلب رسول الله ﷺ أولاً النفع بما رُزِق

من العلم، وهو العمل بمقتضاه فقال:

«اللهمَّ انفعني بما علمتني، وعلِّمني ما ينفعني» ثم ترقَّى علماً زائداً عليه، ليترقَّى منه إلى عمل زائد على ذلك فقال: ﴿ ربِّ زدني علماً ﴾ وهذا من جوامع الدعاء، لا مطمع وراءه، كذا ذكره المناوي في شرح الجامع الصغير.

فينبغي للعاقل أن يواظب على هذا الدعاء، في الصبح والمساء، لعله يُسمع له ويُستجاب، فيُعْطى سُؤْلَه ومتمناه، من زيادة العلم، والعمل بمقتضاه.

الدعاء الثالث: وأما قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوْذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوْنَ ﴾.

فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالعوذ من هَمَزات الشياطين، ومن حضورهم، كما أمره الله تعالى بالعَوْذِ والاستعاذة بالله تعالى من الشيطان، في مواضع من كتابه الجليل.

أ ـ منها قوله تعالى في سورة «النحل»: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُوْنَ ﴾[1].

ب ـ ومنها قوله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿ وَإِمَّا

---

(١) سورة النحل آية رقم (٩٨ ـ ١٠٠).

يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

فينبغي للعاقل أن يعوذ ويستعيذ بالله تعالى من همزات الشياطين، ومن حضورهم، لكون ذلك أمراً هائلاً محذوراً، لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى، سيّما بهذه الكلمات اللطيفة القرآنية، والألفاظ الفصيحة الفرقانية، لعل الداعي بها يُقبل ويُستجاب له، فيُعطى سُؤله ومتمناه، من السلامة والنجاة من شرورهم في الدنيا، والفوز بحصول المرام في العقبى.

الدعاء الرابع: وأما قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾، فهو أيضاً من جوامع الدعاء، لا مطمع وراءه، لأن رحمة الله تعالى ومغفرته من أعظم المطالب، وأشرف المقاصد.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ من الثناء المطابق لدعائه ﷺ.

فينبغي للعاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على عقله[2] ـ أن يدعو

---

(1) سورة الأعراف آية رقم (٢٠٠).

(2) تكررت عبارة الشيخ هذه في عدة مواضع، ومراده منها ألا يكون الإنسان في غفلة أو حماقة أو يكون فيه شيء من الجنون، فإذا لم يكن به شيء من ذلك كان حرياً به ألا يضيع تلك الدعوات الكريمة والفوائد الجليلة بل يغنمها في كل صباح ومساء.

اللّهَ تعالى بهذه العبارة البليغة الوجيزة، المشتملة على طلب المغفرة والرحمة، ويواظب عليه آناء الليل وأطراف النهار، لعله يُقبل ويُستجاب له، فيُعطى سُؤْله ومتمناه، من مغفرة الله تعالى ورحمته.

* * *

الفَصْل الرَّابِع

دعوات بعض الصالحين من هذه الأمة

١ ـ وقد حُكي عن بعض الصالحين من هذه الأمة دعوات.. أما الحاجُّون الداعون بالحسنَيْن من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، فقد حكى عنهم قوله تعالى في سورة «البقرة»:

﴿ وَمِنْهُم مَنْ يَقُوْلُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

أما الحسنة في الدنيا: فهي عبارة عن الصحةِ، والعافيةِ، والأمنِ، والكفايةِ، والعلمِ النافعِ، والتوفيقِ للطاعة، العصمةِ من المعصية، والمالِ الحلال، والحالةِ المرضية، والولد الصالح، والزوجةِ الصالحة.. الخ.

وأما الحسنة في الآخرة: فهي الفوز بالمغفرة والثواب، والخلاص من العقاب، ودخول الجنة من غير حساب ولا عقاب[1]..

---

(١) هذه الآية ـ على وجازتها وسلاستها ـ قد جمعت خيريْ الدنيا والآخرة، فهي تشمل كل خير ونعمة وفضل من مطالب الدنيا أو مطالب الآخرة، ولو =

قوله: ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أي احفظنا من الذنوب والشهوات، المؤدية إلى عذاب النار.

«تنبيه»

ينبغي للسائل أن يسأل الله تعالى خير الدارين، والفوز في الحياتين، والوقاية من النار، بهذه العبارات العجيبة، والكلمات الحسنة، المحكية عنهم، فإنها جامعة لجميع مطالب الدنيا والآخرة، ولهذا كان هذا الدعاء أكثر دعائه ﷺ.

٢ ـ وحُكي عن بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قوله تعالى في آخر سورة «البقرة»:

﴿ وَقَالُوْا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ. لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾.

قوله: ﴿ وَقَالُوْا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي سمعنا قولك وأطعنا أمرك، إلا أنه حذف المفعول، لأن في الكلام دليلاً عليه،

= أراد الإنسان تعدادها لعجز، فما من خير يخطر على البال إلا وتشمله الآية الكريمة الجامعة المانعة

من حيث إنهم مدحوا به، كما ذكره الإمام الواحدي في التفسير البسيط.

وقيل: ليس المراد منه السّماع الظاهر، لأن ذلك لا يفيد المدح، بل المراد سمعنا قولك بآذان عقولنا، وتيقّنّا أنه حقٌّ صحيح[1]، واجب السمع والقبول، كما صرّح به الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير.

قوله: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ منصوب على المصدرية أي اغفر غفرانك، أو على المفعولية أي نطلب غفرانك، وجوَّز بعضهم الرفع فيه على أن يكون مبتدأً أي غفرانُك مطلوبنا، كما ذكره أبو حيان في البحر المحيط.

قوله: ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أي إليك يا رب مصير الكل ومرجعُه لا إلى غيرك، والمراد إلى حكمه رجوع الكل، بالموت والبعث والجزاء، وهو تذييلٌ لما قبله، وتقريرٌ للحاجة إلى المغفرة، لما أن الرجوع للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا. . ﴾ أي لا تعاقبنا بما صدر عنا من الأمور، المؤدية إلى النسيان والخطأ،

---

(١) هذا هو القول الأظهر والأشهر، لأن الغرض ليس مجرد السماع وإنما الغرض منه سماع القبول والتفكر والتدبر، فمن لم يسمع سماع قبول وتدبر فهو في عداد البهائم السارحة كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ مع أن لهم أسماعاً وأبصاراً وقلوباً.

من تفريطٍ وقلّةِ مبالاة ونحوهما، مما يدخل تحت التكليف، كما في تفسير أبي السعود.. فإن الخطأ والنسيان الذي هو ضدُّ التذكر ـ وإن كانا مرفوعين عن هذه الأمة ـ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن اللّهَ تَجاوز لي عن أمتي، الخطأ، والنسيان، وما استكرِهُوا عليه».

وفي رواية: «إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: الخطأ، والنسيان، والإكراه».

إلا أنَّ كلاًّ من المخطىء والناسي، إذا تساهل في التحفُّظ، وتغافل عن أسباب التذكر، لا يكون معذوراً.. فصحَّ طلب الغفران بالدعاء.

وقيل: المراد بالنسيان هو التَّرْكُ، كقوله تعالى في سورة «التوبة»:

﴿ نَسُوْا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ اي تركوا العمل للّهِ، فترك أن يُثيبهم.. وبالخطأ: هو القصدُ والعمد، كقوله تعالى في سورة «الإسراء»: ﴿ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً ﴾.

فالمعنى: ربنا لا تؤاخذنا إن تركنا أمراً من أوامرك، سهواً أو عمداً.

قوله: ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرَاً ﴾ اي امراً ثقيلاً، وبلاءً وبيلاً، والمراد به ما كُلِّفَ به بنو إسرائيل، من التكاليف

الشاقة، أو ما أصابهم من الشدائد والمحن، كذا في «أنوار التنزيل».

قوله: ﴿ كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ أي حملاً مثل حملك إياه على الذين من قبلنا، على أن الكاف صفة مصدر محذوف، و «ما» مصدرية، أو مثل الذي حمّلته إيّاهم، على أن الكاف صفة «إصراً» و «ما» موصولة.

قوله: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ من البلاء والعقوبة النازلة بمن قبلنا.

وقيل: هو حديث النَّفسِ والوسوسة، وقيل: هو شدَّة الشهوة، وقيل: هو فرط المحبة، وقيل: هو العِشق، وقيل: شماتة الأعداء، وقيل: هو الفُرقةُ والقطيعة، نعوذ بالله منها[1].

قوله: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ أي تجاوزْ عنّا فلا تؤاخذنا بذنوبنا.

قوله: ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ أي واستر عيوبنا فلا تفضحنا بها يوم القيامة.

والفرق بين العفو والمغفرة، أن العفو عبارة عن المسامحة وعدم المؤاخذة، أو محو الذنوب وإزالتها من ديوان الحفظة،

---

(١) هذه الأقوال كلها ذكرت كأمثلة لما لا طاقة للإنسان به، ويجمعها التعريف الجامع أي لا تحمّلنا ما لا قدرة لنا على حمله من أنواع البلايا والنكبات والله أعلم.

ومغفرة الله لعباده: عبارةٌ عن أن يستر ذنوبهم ويخفيها، ولا يظهرها لأحد، والمسيء قد يتجاوز عن ذنبه ولا يؤاخذ به، لكنْ يُذكر له ويُظهر. كأنهم قالوا: نطلب منك العفو، فإذا عفوتَ عنا فاستره علينا، ولا تفضحنا به يوم القيامة، كذا في «التفسير الكبير».

قوله: ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ أي تعطَّفْ بنا وتفضَّلْ علينا.

قوله: ﴿ أَنتَ مَوْلَانَا ﴾ أي ناصرنا وحافظنا، ووليُّ أمرنا.. المَوْلى: المَفْعل من وليَ يلي، يكون للمصدر والزمان والمكان، وهو هنا مصدر أريد به الفاعل.

قوله: ﴿ فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي أعنَّا عليهم، وادفع عنَّا شرَّهم، وهو سؤال العصمة من الشياطين، لأنهم منهم، كذا في «تفسير النسفي».

«تنبيه»

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلةٍ كَفَتاه»[1] أي رفعتا عنه الشرَّ والمكروه، وهو من كفى يكفي إذا رفع عن أحدٍ شيئاً وأنجاه.

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه.

وقيل: كفتاه عن قيام الليل.. وقيل: كفتاه عن سائر الأوراد.

وفي آخر سورة «البقرة» مسائل، بعضُها يتعلق بالأخبار، وبعضها يتعلق بالتفاسير، أما المسائل المتعلقة بالأخبار، فقد حقّقناها في الصنف الأول من كتابنا الموسوم بـ«أزهار التنزيل».

وأما المسائل المتعلقة بالتفاسير، فقد استقصيناها في الصنف الثاني من «أزهار التنزيل».

٣ ـ وحُكي عن الصحابة الراسخين في العلم قوله تعالى في سورة «آل عمران»:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ. رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾.

قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ الزَّيغُ: الميلُ، وقيل: هو أخصُّ من مطلق الميل، فإن الزيغ لا يُقال إلا لما كان من حق إلى باطل.

قال الراغب: الزَّيغُ: الميلُ عن الاستقامة إلى أحد الجانبين، وزاغ، وزالَ، ومالَ ألفاظٌ متقاربة، لكنْ الزَّيغُ لا يُقال إلا فيما كان من الحق إلى الباطل.

والمعنى: لا تُزغ ولا تُمِلْ قلوبنا من الحق إلى الباطل،

بعد إذ هديتنا ووفقتنا لدينك، والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك.

قوله: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾.

أي أعطنا من عندك توفيقاً وتثبيتاً لما نحن عليه من الدِّين، والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك.

قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾.

أي إنك أنت المعطي عبادك التوفيق والثبات على دينك، وتصديق كتبك ورسلك عليهم السلام، كما في «تفسير الطبري».

وقد استقصينا الكلام اللائق لهذا المقام، والأحاديث المرويَّة عن النبيِّ عليه السلام، في كتابنا الموسوم بـ «أزهار التنزيل».

قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾.

أي لحساب يوم الجزاء، أو لجزاء يوم لا ريب في وقوعه، ووقع ما فيه من الحشر، والحساب، والجزاء.. ومقصودهم بهذا عرضُ كمال افتقارهم إلى الرحمة، وأنها المقصد الأسنى، والمطلب الأعلى عندهم.

والتأكيدُ لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة، وقوة اليقين بأحوال الآخرة.

قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أي لا يخلف ما وعد به المسلمين والكافرين، من الثواب والعقاب، إلَّا أن وعيد الفُسَّاق تحت المشيئة[1]، كما أن وعيد الكفار مشروطٌ بعدم التوبة، وكذا مثوبة الأبرار، موقوفٌ على حسن الخاتمة، كذا في تفسير الملاّ علي القاري.

«تنبيـــه»

ينبغي للعاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على عقله ـ أن يدعو الله بهذه الألفاظ الفصيحة، والكلمات اللطيفة، المحكيَّة عن هؤلاء الراسخين في العلم، ويواظب عليها آناء الليل وأطراف النهار، لعل الله تعالى يصونه عن الزيغ بعد الهداية، الموصلة إلى البُغية، ويخصُّه بالرحمة الفائقة، من محض فضله وكرمه، لأنه تعالى «يختصُّ برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

٤ ـ وحكي عن بعض الصالحين من هذه الأمة قوله تعالى في سورة «آل عمران»:

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[2].

(١) قوله تحت المشيئة لقوله تعالى: ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ وقوله: ﴿ ويعذبَ المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم... ﴾ الآية.

(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٦).

قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ أي صدَّقنا بما يجب علينـا، ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أي احفظنا عن الذنوب والشهوات، المؤدية إلى عذاب النار.

وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان، دليل على أنه كافٍ في استحقاق المغفرة والوقاية من النار، كما في تفسير القاضي أبي السعود.

«تنبيـــه»

يجوز للداعي أن يدعو الله تعالى، متوسلاً بإيمانه إلى مطلوبه، من المغفرة والوقاية من النار، سيّما بهذه العبارة البليغة المحكية عنهم من غير تأويل، ولا صرف عن ظاهره.

٥ ـ وحكي عن بعض العارفين[١] من هذه الأمة قوله تعالى في سورة «آل عمران»:

﴿ الَّـذِينَ يَذْكُـرُوْنَ اللَّهَ قِيَامـاً وَقُعُوْداً وَعَلَى جُنُـوْبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوْا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ

(١) العارف: هو الذي وصل إلى درجة اليقين، والمعرفة برب العالمين، وعرف صفات الله وجلاله وعظمته، وأشرق قلبه بنور الإيمان، ونور المعرفة الإلهية.

عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ. رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِك وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[1].

قوله: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾ في الآية إضمارٌ، قال الواحدي التقدير: يقولون ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً.

قال الزمخشري: إنه في محل الحال بمعنى: ويتفكرون في خلق السموات والأرض قائلين: ربنا ما خلقتَ هـذا باطلاً.

وفي نصب «باطلاً» وجوه:

الأول: إنه نعتُ مصدر محذوف أي خلقاً باطلاً.

والثاني: بنزع الخافض تقديره: بالباطل أو للباطل.

والثالث: قال صاحب الكشاف: يجوز أن يكون «باطلاً» حالاً من «هذا»، ولفظ «هذا» كناية عن المخلوق أي ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً أي عارياً عن الحكم، خالياً عن المصلحة، وإن كانت العقول قاصرةً عن معرفتها.

وفي هذا المقام مقال بيَّناه في كتابنا الموسوم بـ «أزهار التنزيل» على التفصيل.

قوله: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي تنزيهاً لك عن أن تخلق شيئاً بغير حكمة.

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٩١ ـ ١٩٤).

وهو اعتراضٌ مؤكـدٌ لمضمون مـا قبله، وإقرار بعجـز العقول، عن الإحاطة بآثار حكمته تعالى، في خلق السموات والأرض.

يعني أن الخَلْق إذا تفكروا في هذه الأجسام العظيمة، وما فيها من المخلوقات العجيبة، لم يعرفوا منها إلاّ هذا القدر، وهو أن خالقها ما خلقها باطلاً.

قوله: ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أي الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ما في خلق العالم، من الحكم البالغة، والغايات الحميدة، ولا ينزهونك عن خلق الباطل والعبث.

قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾.

للإخزاء معانٍ متقاربة، يُقال: أخزاه الله أي أبعده، وقيل: أهانه، وقيل: أهلكه، وقيل: فضحه.

والمعنى: إنك من تدخل النار مخلَّداً فيها، فقد أخزيتَه خزياً لا غاية وراءه، كما ذكره الواحدي في التفسير البسيط، مع أن المؤمن العاصي أيضاً سواء دخل النار، أم لا، لا يخلو من نـوع خزي وفضيحة، لمـا روى الحـافظ أبـو ليلى الموصلي: أن العار والخزي يبلغ من ابن آدم في القيامة في المقام بين يدي الله عزَّ وجل ما يتمنى المرء أن يُؤمر به إلى النار[1].

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور.

وفي الآية: إيماءٌ إلى أن العذاب الروحاني، أبلغُ من العذاب الجسماني، حيث جعل حصول الأول مرتباً على وصول الثاني[1]، أي ليس لهم معين ولا نصير ينجيهم من عذاب الله، ولا يلزم من نفي النصرة نفيُ الشفاعة، لأن النُصْرة دفعٌ بالقهر والغلبة، وأما الشفاعة فبطريق العرض والمسألة، كما قاله القاضي والقاري وغيرهما.

قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيْمَانِ أَنْ آمِنُوْا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا.. ﴾.

ومفعول يُنادي محذوفٌ أي ينادي الناسِ للإيمان، واللام بمعنى «إلى» كقوله تعالى: ﴿ الحمدُ للّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ أي إلى هذا.

و «أَنْ» هنا تفسيرية بمعنى «أي» فيكون التقدير: بـأن آمنوا.

والمرادُ بالمنادي: القرآن أو الرسول ﷺ[2].. والنداء بمعنى الدعاء أي يدعو النَّاس إلى الإيمان والتصديق، فامتثلنا أمره فآمنا بربنا.

---

(1) يعني أن دخول نار الجحيم، يتفرع عنه الخزي والهوان، فكل منهما يستلزم الآخر، أعاذنا الله من نار جهنم.

(2) هذا هو الأظهر أن المراد بالمنادي نبينا محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه.. ﴾ الآية، فالمنادي والداعي واحد وهو الرسول الأعظم ﷺ.

قوله: ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا، وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾.

أي اقبضْ أرواحنا مخصوصين بصحبتهم، معدودين من زمرتهم.

وفيه إشعار بأنهم كانوا يحبون لقاء الله تعالى «ومن أحب لقاء الله، أحبَّ الله لقاءه»[1] كما في تفسير البيضاوي.

واعلم أنهم طلبوا من ربهم في الدعاء ثلاثة أشياء:

أولها: غفران الذنوب.
وثانيها: تكفير السيئات.
وثالثها: أن تكون وفاتهم مع الأبرار.

أما المغفرة والتكفير، فمعناهما بحسب اللغة شيء واحد، وإنما أعيد ذلك للتأكيد، لأن الإلحاح في الدعاء، والمبالغة فيه، مندوبٌ كما ورد ﴿ إن اللَّهَ يحبُّ الملحّين فِي الدُّعَاءِ ﴾.

وقيلَ: المراد بالأول الكبائرُ، وبالثاني الصغائر.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ فذكر المفسرون في تفسير هذه المعيَّة وجهين:

---

(١) هذا جزء من حديث صحيح أخرجه الشيخان.

الأول: أن وفاتهم معهم هي أن يموتوا على مثل أعمالهم، حتى يكونوا في درجاتهم يوم القيامة.

والثاني: أن يكون المراد منه كونهم في جملة أتباعهم، كما في قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾[1].

وليس المراد من كون المطيعين مع المذكورين اتحادُهم في الدرجة، ولا مطلق الاشتراك في دخول الجنة.. بل المراد كونهم فيها، بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإذا أراد بعضهم زيارة بعض قدروا على ذلك، وإن بَعُد ما بينهما من المسافة، كذا في تفسير النيسابوري وأبي السعود.

قوله: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾.

عطفٌ على مقدَّر، والتقدير: ربَّنا آتنا ما سألناك، وآتنا ما وعدتنا على رسلك، أي على تصديق رسلك من الثواب، أو على ألسنتهم من حسن مآب.

قوله: ﴿ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾

---

(١) سورة النساء آية رقم (٦٩).

أي لا تخلف وعدك بإثابة المؤمن، وإجابة الداعي، كذا قاله القاضي.

وفيه دليلٌ على أنهم طلبوا منافع الآخرة بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق..

وهذه الدعوات ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد، بل لخوفهم أن لا يكونوا من جملة الموعودين، بتغير الحال وهو الخاتمة والمآل.

وفي الأثر: «من حَزَ به أمرٌ ـ أي أصابه أمر ـ فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراده» كما في تفسير أبي السعود.

والميعادُ مصدر كالميقات، واعلم أن الميعاد، والوعد، والوعيد، بمعنى واحد، لكنْ الغالب أن الوعد في الخير، والوعيد في الشر، كما في تفسير ابن عادل[1].

ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى، لما حكى عن هؤلاء العارفين، أنهم عرفوا الله تعالى بالدلائل وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَآيَاتٍ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾.

ثم حكى عنهم مواظبتهم على الذّكر والتفكّر، وهو قوله

---

(١) هو المسمى بـ «اللباب في تفسير الكتاب» لابن عادل الحنبلي، وهو كتاب مخطوط.

تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴾.

ثم حكى عنهم أنهم أثنوْا على الله تعالى وهو قولهم: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾.

ثم حكى عنهم بعد الثناء أنهم اشتغلوا بالدعاء، وهو من قولهم: ﴿ سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.. ﴾ إلى قولهم: ﴿ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾.

بيَّن الله سبحانه وتعالى أنه استجاب لهم دعاءهم فقال جلَّ وعلا: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ.. ﴾.

وفي الآية تنبيهٌ على أن سرعة استجابة الدعاء، مشروطة بهذه الأمور[1]، كما صرَّح به الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير.

---

١) روي في فضائل تلاوة هذه الآيات الكريمة أن السيدة عائشة رضي الله عنها سئلت عن أعجب ما رأته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً.. أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي ثم قال: يا عائشة، ذريني أتعبد ربي عز وجل، فقلت: والله إني لأحبُّ قربك، وأحبُّ هواك، فقام إلى قربة من ماءٍ في البيت، فتوضأ ولم يكثر صبَّ الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل الله عليَّ في هذه =

«تنبيـــه»

يجوز لنا أن ندعو الله تعالى بهذه الأدعية المحكية عن هؤلاء العارفين، من غير تأويل، ولا صرف عن ظاهره، لكنْ ينبغي للداعي أن يقدِّم على الدعاء، ما قدَّموا عليه من معرفة الله تعالى حقَّ معرفته، بتذكر الدلائل، الدالة على وجوده، ووجوب ذاته، وكمال صفاته، وانفراده بالألوهية، والمواظبة على ذكر الله عز وجل، والتفكر في مخلوقاته، الدالة على كمال قدرته، وباهر حكمته، والاشتغال بالثناء عليه، والتنزيه له عما لا يليق بجلال ذاته، وكمال صفاته، ثم يشتغل بالدعاء، لعل الداعي بها يُستجاب له، كما استجيب لهم.

«الدعاء المحكي عن النجاشي وأتباعه»

ومن الدعاء الذي حكى عن النجاشي وقومه من الصحابة قوله تعالى في سورة «المائدة»:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوْا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُوْلِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ، مِمَّا عَرَفُوْا مِنَ الحَقِّ، يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

قوله: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا ﴾ أي بالرسول وبما أنزل عليه.

= الليلة هذه الآيات: ﴿ إن في خلق السموات والأرض... ﴾ إلى آخر السورة، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

قوله: ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي مع أمته الذين جعلتهم يوم القيامة شهداء على الأمم[1]، نشهد بمثل ما يشهدون به يوم القيامة، من أن الرسول ﷺ قد بلَّغ الرسالة، وأن الأنبياء عليهم السلام قد بلَّغوا، كما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُجاء بنوح عليه السلام وأمته يوم القيامة، فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسأل أمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقال لنوح عليه السلام: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمتُه، فيُجاء بكم فتشهدون. ثم قرأ عليه السلام [illegible] ﴿ وَكَذَلِكَ جعلناكم أمة وسطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[1]».

وفي بعض الروايات: «ثم يؤتى بمحمد ﷺ فيُسأل عن حال أمته، فيزكيهم، ويشهد بصدقهم فذلك قوله تعالى في سورة «النساء»: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾؟.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إقرأ عليَّ القرآن، فقلت: يا رسول الله،

---

(١) كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾.

أقرأ عليكَ، وعليكَ أنزل[1]؟ قال: إني أحبُّ أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت عليه سورة «النساء» حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى[2] بِهِمُ الأَرْضُ، وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً ﴾ قال: حسبُك الآن، قال: فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان» متفق عليه.

رُوي أنَّ الآية نزلت في «النجاشي»[3] وأصحابه، وبعث إليه رسول الله ﷺ بكتابه، فقرأه ثم دعا «جعفر بن أبي طالب» والمهاجرين معه، وأحضروا الرهبان والقسّيسين، فأمر جعفر أن يقر عليهم القرآن، فقرأ سورة «مريم»، فبكَوْا وآمنوا.

وقيل: نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قوم النجاشي، وفدوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة «يّس» فلما

---

(١) كأنه رضي الله عنه يقول: كيف أقرأ بين يديك يا رسول الله، وعليك نزل هذا القرآن؟ فأنا أحقُّ أن أستمعه منك، لا أن أقرأه عليك، فقال له الرسول الكريم: «إني أحب أن أسمعه من غيري».

(٢) أي يتمنى الكفار والفجار.

(٣) النجاشي هو ملك الحبشة في زمنه ﷺ، أسلم ولم يجتمع برسول الله، ولما مات صلى عليه الرسول الكريم صلاة الجنازة، جمع أصحابه وصلى عليه صلاة الغائب.

سمعوا رقّت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع قائلين: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1].

«تنبيـــه»

ينبغي للمؤمن أن يدعو الله تعالى، حال كونه متوسّلاً بإيمانه إلى مطلوبه، وهو أن يكون من جملة الشاهدين لهم بالبلاغ والتبليغ، سيّما بهذه العبارة البليغة، المحكية عنهم، من غير تأويل ولا صرف عن ظاهره.

«دعاء أهل الصُّفَّة»

وحُكي عن فريق من الصحابة رضوان الله عليهم، قيل هم أهل الصُّفَّة قوله تعالى في سورة «المؤمنون»:

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[2].

قوله: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾.

في توسلهم بإيمانهم إلى طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى، دلالة على أن العبد بمجرد الإيمان يستوجب المغفرة والرحمة من الله تعالى، كذا في التفسير الكبير.

---

(١) الرواية الاولى هي المشهورة، وقد ذكرها المفسرون أصحاب السير.

(٢) أول الآية: ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ﴾.

قوله: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ لأن من سواه تعالى من الراحمين، لا يرحم أحداً ولا يحسن إليه، إلا لتحصيل المدح في العاجل، والثواب في الآجل، وللخلاص به من العقاب يوم يقوم الحساب، أو لدفع الألم الحاصل من رقّة قلبه، وضعف طبعه، فهو في الحقيقة إنما أحسن لغرض نفسه.

أما الحقُّ سبحانه وتعالى، فإنه يرحم عباده، ويحسن إليهم لا لغرض ولا لطلب عوض، بل لمجرد الفضل والكرم.

وأيضاً إن مَنْ سِواه تعالى من المحسنين، إذا ألحّ إليه الفقير أبغضه وزجره، أما الحقُّ سبحانه وتعالى فهو يحب المُلِحِّين في الدعاء.

وأيضاً إن من سواه تعالى من المحسنين، فإحسانه زائل غير دائم، إما بزوال نفسه، أو بزوال ماله أو منصبه، أما الحقُّ سبحانه وتعالى فهو الحيُّ، الباقي، الدائم، قديم الإحسان، المنزَّه عن عوارض الزوال، وسِمَاتِ النقصان.

وأيضاً إن من سواه تعالى من المحسنين، فإحسانه يُخصُّ بقوم دون قوم. أما الحقُّ سبحانه وتعالى، فرحمتُه وإحسانُه عامة شاملة للكلّ، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

فثبت أن رحمة الله تعالى على عباده، وإحسانه إليهم، لا

تُعدُّ ولا تُحصى، كما قال تعالى في مواضع من كتابه: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوْهَا، إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُوْمٌ كَفَّارٌ ﴾، فلا جَرَم أنه تعالى خير الراحمين، وخير المسؤولين، تبارك وتعالى عن قول الظالمين علواً كبيراً.

«تنبيـــه»

ينبغي للمؤمن أن يدعو الله تعالى، ويتوسل إليه بإيمانه إلى مطلوبه، من مغفرة الله تعالى ورحمته، سيما بهذه العبارة البليغة المحكية عنهم، من غير تأويل ولا صرف عن ظاهره.

«دعاء فريق من الصحابة رضوان الله عليهم»

وحكي عن فريق من الصحابة رضي الله عنهم، قيل هم العشرة المبشرة قوله تعالى في سورة «الفرقان»:

﴿ وَالَّذِينَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً. إِنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾... إلى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[1].

قوله: ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ فيه تحقيق إيمانهم بالبعث والجزاء.

---

(١) سورة الفرقان آية رقم (٦٥ - ٧٤).

قوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أي شراً دائماً، وهلاكاً لازماً.

قوله: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ساءت في حكم بئست، وفيها ضمير مبهم يفسّره «مستقراً» والمخصوص بالذم محذوف، ومعناه: ساءت مستقراً ومقاماً هي.. وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم «إنّ» وجعلها خبراً لها، كما في تفسير أبي السعود.

والظاهر أن التعليلين من كلام الداعين، وحكاية لقولهم.

وقيل: من كلام الله تعالى.

وقوله: ﴿ وَمُقَامًا ﴾ معطوف على سبيل التوكيد، لأن الاستقرار والإقامة كليهما مترادفان.

وقيل: المستقر للعصاة من أهل الإيمان، فإنهم يستقرّون فيها ولا يقيمون، والإقامة للكفار، كما في تفسير أبي حيان.

قوله: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾.

يجوز أن تكون «مِنْ» ابتدائية على معنى: هبْ لنا من جهتهم ما تقرُّ به عيوننا.

وعن محمد بن كعب قال: (ليس شيء أقرّ لعيونهم، من أن يشاهدوا أولادهم وأزواجهم مؤمنين مطيعين، مواظبين على العبودية).

تقول: أقرَّ الله عينك: أي صادف فؤادك ما يحبُّه، كأنهم قالوا: هب لنا منهم سروراً وفرحاً.

قيل: إنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وذرية أتقياء، تُسرُّ به قلوبهم، وتَقَرُّ بهم أعينهم، لاحتمال مساعدتهم لهم في الطاعة، وتوقع لحوقهم في الجنة، حسبما وعده سبحانه وتعالى بقوله في سورة «الطور»:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ، أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَمَا أَلَتْنَاهُمْ[1] مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ.. ﴾ الآية.

قوله: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾.

قيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة، الذين يشار إليهم، ويُقتدى بهم.. وفي الآية دلالة على أن الرياسة في الدين، يجب أن يُطلب ويُرغب فيها.

«تنبيه»

ينبغي للعاقل - ما لم يكن مغلوباً على عقله - أن يكون خائفاً من عذاب جهنم، فيدعو اللهَ تعالى أن يصرف عنه عذابها، لعل دعاءه يُسمع ويُستجاب، ويصرف عنه العذاب، سيّما بهذه العبارة البليغة، المحكيّة عن هؤلاء الصالحين،

---

(١) وما ألتناهم: أي وما أنقصناهم من أجور أعمالهم شيئاً.

فإنهم ـ من حسن معاملتهم مع الخلق، واجتهادهم في عبادة الحقّ ـ خائفون من عذاب جهنم، مبتهلون إلى الله تعالى في صرف العذاب عنهم، لعدم اعتدادهم بأعمالهم، ووثوقهم على استمرار أحوالهم، كقوله تعالى في سورة «المؤمنون»:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾[1] وأن يسأل الله تعالى أزواجاً وذرية أتقياء، إن لم يكن صاحب أزواج وأولاد، وإن كان ذا عيال وأولاد، فيسأل الله أن يكونوا أتقياء، أو ثباتهم على التقى، كي تقرّ عينه بهم في الدنيا والعقبى، وأن يطلب من الله عزّ وجل رياسةً في الدين، لإنفاذ الشريعة، وإرشاد الأمة، سيما بهذه الألفاظ الفصيحة، والعبارات اللطيفة، المشتملة على هذه المقاصد العليّة، المحكية عنهم، لعل الداعي بها يستجاب لهم كما استجيب لهم.

«دعاء أبي بكر الصديق»

وحكي عن بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ وقيل هو أبو بكر الصديق ـ قوله تعالى في سورة «الأحقاف»:

---

(١) أي والذين يعملون ما عملوا من الخيرات والحسنات، ويفعلون ما فعلوا من الطاعات وقلوبهم خائفة من الله عز وجل ألاَّ يتقبل منهم، فهم مع إحسانهم خائفون مشفقون، لأنهم إلى ربهم راجعون، حيث يكون الحساب والجزاء.

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾.

قوله: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه أَلْهِمْنِي.. قال صاحب الصحاح: استوزعتُ الله فأوزعني أي استلهمتُه فألهمني، كذا في التفسير الكبير.

قوله: ﴿ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ أي وألهمني. أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ، يعني نعمة الإسلام التي فوق كل نعمه.

أدرج فيه ذكر « والديه » تكثيراً للنعمة، أو تعميماً لها، فإن النعمة عليهما نعمةٌ عليه، والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما، سيَّما الدينية.

وقد قيل: إن الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وكثير من المفسرين على هذا القول، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أجاب الله دعاء أبي بكر، فأعتق تسعة من

المؤمنين، منهم «بلال» الحبشي، ولم يُرد شيئاً من الخير إلاَّ أعانه الله تعالى عليه.

قوله: ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أي واجعل الصلاح سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أجاب الله تعالى دعاء أبي بكر، فاجتمع له إسلام والديه، وبنيه وبناته جميعاً.

قوله: ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أي إني تبتُ ورجعتُ إلى طاعتك، عمّا لا ترضاه من معصيتك.

قوله: ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي من المخلصين الدينَ والعقيدة، لله رب العالمين.

هذا على تقدير كونه مِنْ « أسلم وجهه لله» أي أخلص.

وأما إذا كان مِنْ «أسلم» إذا استسلم وانقاد[1]، فمعناه من المستسلمين المنقادين لدين الله تعالى، فإن الإسلام في أصل اللغة: الانقيادُ، كما صرّح به الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير.

---

(١) معنى الإسلام في اللغة: الانقياد والخضوع والاستسلام لحكم الملك العلام، ومنه قوله تعالى: ﴿ إذ قال له ربه أسلمْ قال أسلمتُ لرب العالمين ﴾.

«تنبيـــه»

يجوز للداعي أن يدعو الله تعالى بهذه الألفاظ الفصيحة، والكلمات البليغة، المشتملة على هذه المطالب العليَّة، المحكيَّة عن صاحب نبينا «أبي بكر» الصدّيق رضي الله عنه، من غير تأويل ولا صرف عن ظاهره، إن كان والداه مؤمنين، متنعَّمين بنعمة الإسلام، وكانت له ذرية موجودة أو مرجوَّة.

فينبغي للعاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على أمره ـ أن يدعو الله بهذه العبارة البليغة، المحكية عن صاحب نبينا في الغار، ورفيقه في الأسفار، ويواظب عليه آناء الليل وأطراف النهار، لعلَّ الله يلهمه الشكر على نعمه التي لا تحصى، ويوفقه لما يحبُّ ويرضى، ويجعل الصلاح سارياً في ذريته، ويتوب عليه برحمته ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾.

«دعاء المستضعفين من المؤمنين»

وحكي عن المستضعفين من هذه الأمة قوله تعالى في سورة «النساء»:

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالنِّسَاءِ، وَالْوِلْدَانِ، الَّذِينَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾[1].

(١) سورة النساء آية رقم (٧٥).

المراد بالمستضعفين من الرجال والنساء والوِلدان: قومٌ بقوا بمكة عجزوا عن الهجرة إلى المدينة، كانوا يلقون من كفار مكة أذى شديداً.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كنتُ أنا وأمي من المستضعفين من النساء والوِلدان، وكانوا يدعون ويقولون في دعائهم: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، وأجمعوا على أن المراد من هذه القرية الظالم أهلها «مكة المكرمة» وكونُ أهلها موصوفين بالظلم، يحتمل أن يكون لأجل أنهم مشركون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ويحتمل أن يكون لأجل أنهم كانوا يؤذون المسلمين، حيث بلغ أذاهم غير المكلفين، ولذلك خص «الوِلْدَان» بالذِّكر.

«تنبيـه»

هل يجوز لواحدٍ من سكان مكة المكرمة، أن يدعو الله تعالى بهذا الدعاء، المحكيِّ عن هؤلاء المستضعفين، الذين بقوا بمكة لعجزهم عن الهجرة إلى المدينة مع النبي ﷺ؟.

الجواب: فيه تفصيل، أما قولهم: «ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها» فقد ذكرنا قبل هذا في كون أهلها موصوفين بالظلم وجهين:

الوجه الأول: أنهم موصوفون بالظلم لأجل أنهم مشركون قبل الفتح، فعلى هذا الوجه لا يجوز الدعاء به، لأن أهل

مكة كلهم صاروا مسلمين بعد الفتح، كما أخبر به سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً.. ﴾.

والوجه الثاني: أنهم موصوفون بالظلم لأجل أنهم كانوا يؤذون المؤمنين المستضعفين، وعلى هذا الوجه يجوز له الدعاء به، لكن الداعي إذا قال: «ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها» يريد به بعض أهلها الذي يؤذيه أو يؤذي غيره، ولا مخلص له إلا بالخروج عنها.

وأما من كان ساكناً في قرية أخرى، غير مكة المكرمة، فله أن يدعو ويريد به بعض أهلها لا كلّها إن كانت القرية دار الإسلام، وأما إذا كانت القرية دار الحرب، وكان الداعي أسيراً في أيدي الكفار والعياذ بالله تعالى، فله أن يدعو الله تعالى بهذه العبارة البليغة، المحكية عنهم، على الوجهين المذكورين.

وأما قولهم: ﴿ وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾ فنعم السؤال، ونعم المطلوب.

«دعاء المؤمنين لإخوانهم السابقين»

وحكي عن الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم وهم التابعون لهم إلى يوم الدين قوله تعالى في سورة «الحشر»:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.

قوله: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾.

يعني يستغفرون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان.

قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾.

أي غِشّاً، وحَسَداً، وبُغضاً، فكل من كان في قلبه غل أو بغض لأحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يترحَّم على جميعهم، فإنه ليس ممن عناه الله تعالى بهذه الآية، لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاثة منازل:

«المهاجرين، ثم من بعدهم الأنصار، ثم من بعدهم التابعين، الموصوفين بما ذكر»، فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة، كان خارجاً من أقسام المؤمنين، وليس له في فيء المسلمين نصيب.

قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.

أي مبالغ في الرأفة والرحمة، فحقيق بأن تُجيب دعاءنا.

«تنبيــه»

واعلم أنه يجوز الدعاء بهذه العبارة البليغة، المحكية عن هؤلاء التابعينِ المستغفرين، لأنه مطابق لحال الداعي،

وموافق لمطلوبه، فينبغي له أن يواظب على هذا الدعاء، لأن فيه طلب الغفران، وسؤال العصمة عن الغِلِّ لأهل الإيمان، مع ما فيه من التعرض للرأفة والرحمة، المقتضية لإثابة المؤمن، وإجابة الداعي، فنعم السؤال، ونعم المطلوب.

«دعاء المؤمنين على الصراط»

وحكي عن المسلمين الذين يمرون على الصراط، إذا رأوا نور المنافقين قد انطفى، قوله تعالى في سورة «التحريم»:

﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

قوله: ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ يعني إذا رأوا نور المنافقين قد انطفى، يعتريهم الخوف على ما هو مقتضى البشرية، وإن كانوا جازمين بالإتمام، والنجاة، ودخول الجنة.

وقيل: تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم، فيسألون الإتمام تفضلاً.

وقيل: السابقون إلى الجنة يمرون على الصراط مثل البرق، وبعضهم كالريح، وبعضهم حَبْواً وزحفاً.. وأولئك الذين يقولون «ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير» والله تعالى أعلم بمراده من أسرار كلامه.

«تنبيــه»

ينبغي للعاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على عقله ـ أن يسأل الله تعالى في الدنيا إتمام النور، وازدياده في العُقبى، سيّما بهذه العبارة البليغة، المحكية عن المسلمين، حين مرورهم على الصراط، لعل الداعيَ بها يُسمع ويُستجاب له دعاؤه، ويُعطى سُؤْله ومتمناه من إتمام النور، وغفران الذنوب، وثبات الأقدام على الصراط، ودخول الجنة بفضل الله ورحمته.

اللهمَّ اجعلنا من المنوَّرين بالنور الكثير، ومن المبشرين بالغفران الكبير، الذي لا يظهر أثره إلاَّ في مثلي وفي أمثاله من المذنبين المجرمين، وثبِّتْ أقدامنا يوم تزلُّ فيه الأقدام، وادخلنا الجنة مع المسلمين الكرام، برحمتك التي أخَّرتها ليوم القيامة[1]، بحرمة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

● ● ●

(١) في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدها بين الجنِّ، والإنس، والبهائم، والهوّام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها. وأخَّر تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة» (رواه البخاري ومسلم).

«جملة الأدعية القرآنية
في هذا الكتاب»

ولنذكر جملة الأدعية القرآنية، والدعوات الفرقانية، المذكورة في هذه المجموعة التي تُسمّى سلسيلاً، ليسهل حفظُها.

الفَصَل الأوّل

«فيما حكي عن الأنبياء والمرسلين المتقدمين»

- ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾.
- ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾.
- ﴿ رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِينَ ﴾.
- ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ. وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.
- ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾.
- ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾.
- ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ.

وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.
- ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.
- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.
- ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.
- ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.
- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.
- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.
- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾.
- ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

- ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾.
- ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾.
- ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.
- ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾.
- ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي.. ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾.

الفَصْلُ الثَّانِي

«فيما حُكي عن بعض الصالحين من الأمم الماضية»

- ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾.
- ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾.
- ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

الفَصلُ الثَالِثُ

«فيما أمر الله تعالى به خاتم الأنبياء والمرسلين»

- ﴿ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾.
- ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾.
- ﴿ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾.
- ﴿ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

«فيما حكي عن أمته ﷺ»

- ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.
- ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

- ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾.
- ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾.
- ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ

فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.

● ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

«تم الكتاب بعون الملك الوهاب»

في البلد الحرام «مكة المكرمة»

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

غرة شعبان سنة ١٤٠٥ هـ

* * *

الفهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع